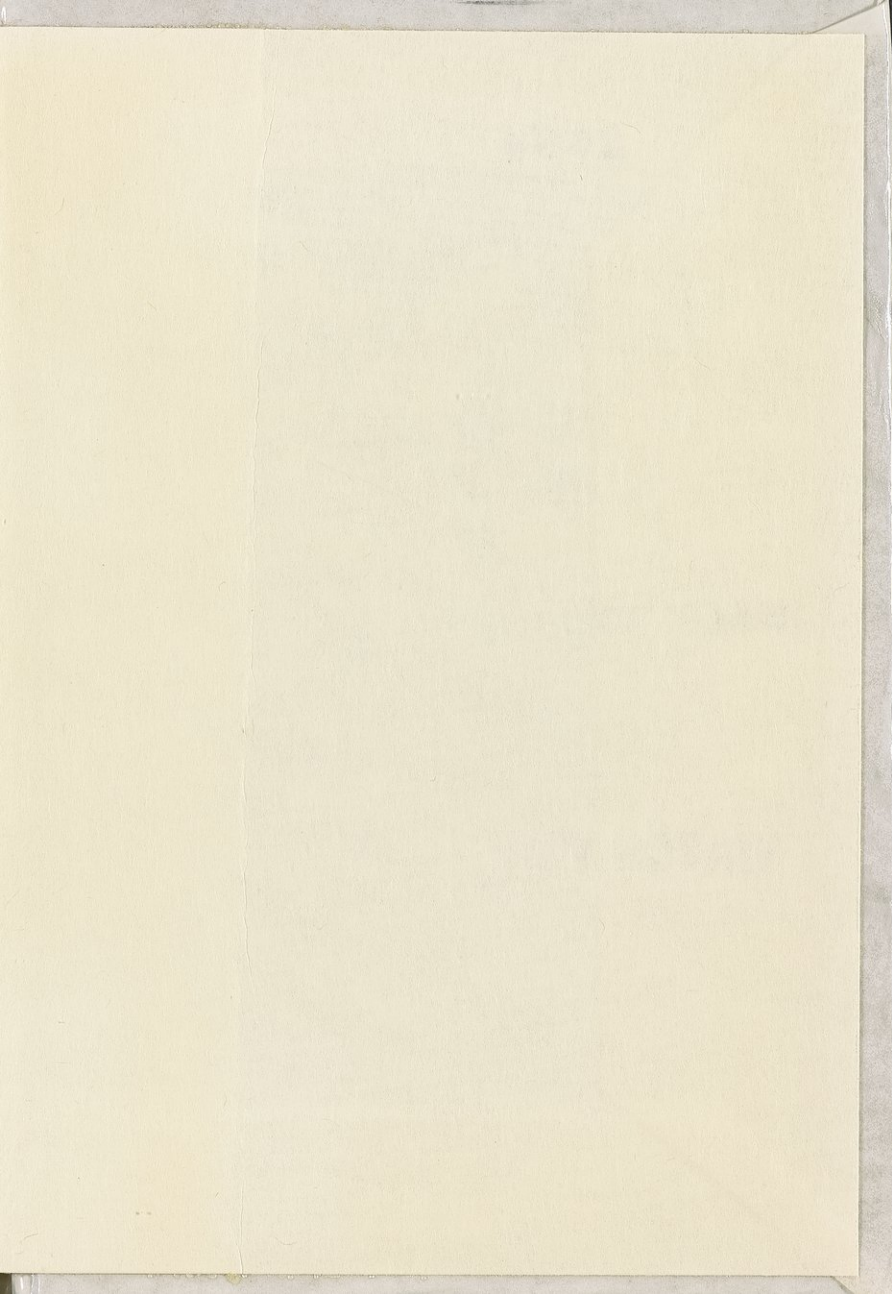


حديث الشجر

عبد الله العلاءيلي

مُلَهَّنَ الرَّعْلَى
خَدَّيْخِزَامُ الْمُؤْمِنِينَ





Princeton University Library



32101 055409799

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*



PCI=0

Alāyil

عبد الله العبداني

مسلمون الزعمى

خَدَّيْخِرَاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ



- ١ -

(RECAP)

BP 76)

. 8

. K48A66

32101 014873846

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة...

فكرة هذا « الحديث » خالجتنا قبل مدة ليست بالبعيدة ، وترددنا في الاقدام على تنفيذها مدة ليست بالقصيرة أيضاً .

وقد حفزنا على التفكير في مثل هذا ما رأيناه من انجاء قمر من شبابنا الطالع ، نحو الأدب الرخيص تطلع به علينا الكثرة من دور الطباعة في ايامنا هذه . فنظرة عابرة على اكثر مجلات هذا اليوم تربينا انها قد انسقت نحو طريق شائك تحف المخاطر باكثر جوانبه ، وليس ادل على ذلك من تكرار المجلات المصورة الملونة وتزاعها في نشر هذه الصورة والابداع في هذا الاخراج كأنما الفارئ العربي اصبح قارئاً للرسوم والاحاديث التي ليس لها من الأثر سوى تسويد تلك الصفحات البيض ...

وناحية اخرى ايضا وهي انصراف شبابنا في ابامنا هذه عن
تاريخ اباؤنا واجدادنا ، وجهله شواخه واجدادنا ، انصرف عن هذا
انصرافا يبعث في النفس المرارة والالام ، بمد أنطفئ عليه تيار التجدد
المزيف فوضع ستارا كثيفا ما بين عصرنا الحاضر وماضيها المضيء
المجيد. فكأنما شرط المدنية الحديثة الاسامي هود ثرائها الماضي وطمس
معالمه ، وكأنما شرط المدنية الحديثة الاسامي هو قيامها على اسلاء
التواريخ وانقراض المتقدمين ، وكأنما شرط المدنية الحديثة الاسامي
هو منافاتها لكل قديم مهما كان . . . وتمشياً مع هذا الشرط تعامينا
عما خطه التاريخ من آثار خوالد تواسكبها العظمة والجلالة من كل
أطرافها ، انصرفنا عن كل ذلك لتعلق بجمال قد اعطيتها شيئاً من
القوة اذا قلت عنها انها أوهى من خيوط العكبوت .

فهل لهذا من تعليل صحيح يبرر هذا الهدم الشامل الضار ؟ وهل
يصح لانسان ان يهدم ما ضيه بما فيه من مفاخر ومحاسن ليعتلق
بأمل ضائع تعصف به الالهواء في كل حين وتتقاذفه العواصف في
كل وقت على غير اتجاه وفي غير مستقر ؟ !

لقد توزعت السبل ، وتشتت الالهواء ، وانتشر الناس موزعين
في تلك الطرق المتشعبة ، كل يهدف الى أمر ويتجه الى صرح ، تاركين

وراهم كل ما ورثوه ونشؤوا عليه من مبادئ ومثل ، تاركين كل ذلك وراء ظهورهم لا يعنيه من شئ سوى التطييل والتزوير لهذا المبدأ أو ذاك المعتقد ، حاصر بن جهودهم في هذا الوايد الجديد ، يحوطونه بخدماتهم وبكلاؤه وبجهادهم ، انجسوا الى هذا دون أن يكلفوا النفس شيئاً من الالتفات الى ما تركوه وراء ظهورهم من مبادئ واسس ثابتة راسخة لن يثبت امامها اي مبدئ طارئ جديد واي مذهب مستحدث اذا أردنا ان نقاش الامور بالمنطق الصحيح وننظر اليها بالنظرة الصحيحة الصائبة الحققة .

ان بعض ذلك الجهاد ، وبعض ذلك الاخلاص ، وبعض ذلك التحمس الذي احطنا هذا الجديد به ، ان بعض ذلك يكميناً للارتعاع بأنفسنا الى المكان الذي اراده لنا مبدئنا الصحيح القويم والاستغفاف بالكثير من تلك المذاهب العارضة التي لم تخلق الا للتناحر ولم تثبت الا للاستعباد والاسترقاق .

هذا شئ يستلفت النظر بطبيعة الحال ، وهذا أمر نجب معالجة ، فيما اعتقد ولعل توجيه الانظار الى ذلك نوع من انواع المعالجة ، ولعل الخوض في مثل هذه المواضيع نوع من أنواع العلاج ايضاً ، ولعل البحث المجرد الصحيح لفضايانا التاريخية ، والدرس المجرد الحر لشخصياتنا

المثالية الحققة ونشر سيرهم ، قسم مهم من الوداء الناجع لدائنا المستعمل
المنتشر .

ان في تاريخنا من الحوادث والمبر ، وفي رجالاتنا من الابطال
العابرة الشاغلين الكثير الكثير الذي لم نقرأه ولم نتحدث عنه ولم نعرف
عنه شيئاً . وهذا - كما ترى - نوع من العقوق والنكران لارثك
الذين اتاروا لنا الطريق وعبدوه لنسير عليه دون عوج ولا التواء ،
ولكننا شئنا ان نتخذ الطريق الوعر مسلوكاً ، فرحنا نتخبط في دبابيره
المظلمة ونطيل السير في التواءاته المتعرجة الكثيرة دون ان نلتفت الى
ذلك الطريق اللاحب الذي يشع بالنور ، ويدفع بنا الى الحياة عن
طريقها الصحيح المستقيم فنزل الى معتركها مقدرين مستغربين ، فنكمل
ما بدأه ، ونبني فوق ما أسسوه .

هذا الى جانب حوادث كثيرة اشار اليها التاريخ من طرف خفي
أو الملح لها تلميحاً خفياً ، فراحت في بطون الكتب ضائعة مبثرة ،
وقد مدت الايام ودارت العصور وهي مهملة في مكانها من الزوايا المتفرقة
دين ان يتقدم احد لأزالة الغبار عنها واخراجها للناس على حقيقتها
خاضعة للتحليل المنطقي الدقيق الصحيح المستعمل من تلك النتف

الموزعة في تلك الصفحات توزيعاً اقل ما يمال عنه انه توزيع في غير
عدل ولا انصاف .

وكما هضمت تلك الحوادث في التاريخ فكذلك هضم معها رجال
قضوا حياتهم في خدمة صادقة مخلصة لو اعارها التاريخ شيئاً من
الانصاف لاحتل اولئك اخلا صفحاته وانصمها بياضاً واشرفها نوراً .
كل ذلك دفعنا للقيام بنشر هذه السلسلة التي ترى كتابها الاول
بين يديك وسوف يتلوه - انشاء الله - في كل شهر كتاب يبحث حادثة
من تلك الحوادث أو يقدم رجلاً من اولئك الرجال ، أو يعالج مشكلة
من مشكلاتنا اجتماعية كانت ، أو اديبية ، أو علمية أو غير ها ، بنا برفاق
حياتنا من نواحيها جميعاً .

هذه هي الدوافع التي دفعتنا الى الاقدام على هذا العمل ، وقد
قامت امامها موانع تبث الضعف في النفس ، والخور في المزيمة ، والتردد
في الاقدام ، ولا استطيع ان ادعى بان كل ما احتمل يمكن ان يقع ،
ولكن الظن في الوقوع حاصل على اضعف الاحوال ، ولا ارى
ذكر ما احتمل من الامور مما يثبت على التردد لازماً ، بعد ان نخاطبها
كلنا وسرنا ممتددين على الله راجين منه التوفيق والمعونة .

والسلسلة بعد هذا مكتبة متنوعة شاملة ، تضم بين دفتيها

دراسات وافية للمواضيع التي تبحثها وتطرق اليها ، يقدم كل كتاب
منها كاتب مختص بمن عرفهم العالم العربي ، باقلامهم الحرة وآرائهم
المجردة وانجاسهم الصحيح .

ولا يفوتنا ان نطلب من القارئ الكريم مشاركتنا الهوى بهذا
العمل والارتفاع به ، لئلا يؤدي الخدمة التي قصدها اليها من وراء
اصدار هذه السلسلة ، ونصل الى الهدف الذي نرمي اليه ، فيؤنسونا
بآرائهم واقتراحاتهم لنصل بمعاونتهم الى ما رمينا اليه .

هذا واننا نرحب بما تلتجأ اقلام اصحاب الاقلام منهم في
المواضيع المختلفة التي توافق خطة هذه السلسلة ليكون حلقة من
حلقاتها .

هذا ما اردنا بيانه في هذه السطور لنبدل على الهدف الذي حدا
بنا الى اصدار هذه السلسلة والاعتماد بعد الله على القارئ الكريم
وتشجيعه .

والله من وراء القصد .

عبد الوهاب البيهقي

مقدمة

أن اصيب القصد كله . . فأحكي حكاية بياض الطهر بسواد هذا الحرف ، مطمح استحيي ان أزعمه . بل لعل الحرف في وعيه الاقصى ، مازعم لنفسه شيئاً فوق أنه قدرة التراب على رسم الأثر . . وكان فضله من بعد وكان إدلاله ، في انه أنه أثر يتلف ، وهو في تلفته يشير . . ثم يفيض الحرف جفنه ، وتنقطع به عما وراء الإشارة الكبرى .

وأنا بالحرف . . وهذا شأنه . ما كنت لا باغ حتى حيال موائل الوجود المادي ، مبلغاً ينقل همسة الطيب مثلاً في فم الأزهار ، أو أية ارتسامة أخرى تقع وتخطر على لوعي الليل والنهار . . فكيف بي ، أو كيف تراني ؟ . . حين أرود معالم الوحي في حمى النبوة .
إني حين أدنو ، لا أعمل نفسي بأكثر من ان أرجع بحرف ملوّن . .
حظه في أنني غمسته واصاب من الينبوع كما أرجو . ان لم يكن الضياء ، فلا أقل من ان يكون الرواء .

على ان الطبيعة في ذكرياتها الاولى ، لم تكن تعرف الالماسة المشعة ،
الا انها أضلاع عتمة في قطعة خم ، صلت صلاتها في محراب الكون ،
فأفرغ عليها من حقيقته . . أي أفرغ عليها هذا الشيء الذي به تضي .
هذا الشيء الذي تقول هي عنه : انه بعض من تجوهر المادة
بالمعنى ، فشأنها أنها دوماً في صلاة . . وتقول عنه طبيعة الشهوة فينا :
انه بعض من مسّ المادة بالزينة ، فشأننا أننا دوماً في فتنة .

فأصمنا أن لا نسمع ، وفي كل شيء - أي شيء - نداء . . .
ثم لا اطمع لفحة هذا القلم الذي اقلبه - وقد اطلقت لها في
عجري يصلها بالأقداس ، أقداس الروح ، وليس في عبارتها الارضية
أيضاً - لاحظ تلك الفحة التي لا تقناً تبث خبرها ، بما تبث من سني
يمد به سناء .

والقلم الذي لا تضع في حروفه طبيعة معنك على ما أردت ، يضع
فيها طبيعة معناه على ما أراد . . وطبيعته ليست الا بعضاً من حجر
في بعض من خشب ، جهده انه يمج ويجري ، بشيء كالظلمة على شيء
كالجذب ، لا نظرية ولا جمال ولا روحانية ولا حياة .

ومهما كان القلم صناعاً على خلب والتماع ، فانه لا يمدو ان يكون
خلب سراب والتماع آل . . على ان الزخرف قد يكون له مسّ البهجة

حين تقتصره في نفسك ، ولكن ندر ان كان له مع الاطمئنان فيها .



وبعد فهذه فصول من الماضي المشرق السخي بالاشراق ، أردت أن أعقد بينها عقد خيوط الشماع ، فتظهر كبيرة كبيرة ، لا بما أضفي عليها من تألق هو في ذات نفسها ، بل بما اساعد على أن تضفي علينا منه . . فتعمل فينا عملها الذي هو حظنا من التاريخ .

على أن حكاية الحاضر من الماضي ، وحكايتها جميعاً من المستقبل هي بينهما في هذه وهذه حكاية الحجر من الحجر في مدى بناء بعيد ، واحدة تلاحم واحدة على نحوين من الفعل أو الانفعال . . وأعجوبة التاريخ في ذلك كله ، أنه البناية التي تلاحم بين المادة والحياة ، بين المكان والزمان والسكان ، في الفكر لحاماً عجيباً .

والكي يتضح لك ما نعي أكثر فأكثر ، نجد من الخير أن نكشف لك عن أبرز خصائص الحاضر بكل ما يشترك في تكوينه .

وعلى صعيد هذه الفطرة ، يبدو الحاضر لنا واثقاً شيئاً وراء كونه الملاحظة المستمرة على شكل من التكيف ، بين المادة والحياة ، في الزمن . . أما حين تتخذ الملاحظة شكل التكيف ، فأنها لا تعني حاضراً بل استمراراً لماض ، وانقطاع صفة الحاضر يعني انقطاع

صفة التاريخ إلا على وجه من السلب .

وهذا المفهوم قدر مشترك يجمع على سواء ، حاضر الافراد
وحاضر الجماعات دون فرق إلا فرق الاعتبار ، ومداره الكم
لا الكيف .

فحاضر أي فرد كحاضر أية جماعة ، يعبر عن ملاحظة دائبة في
الزمن أي في الآن ، لا تنقطع أو تتوقف ، بين واقعين : لأحدهما صفة
المادة أي الافتعالية ، وهي تتناول كل ما انفصل من الكائن . .
وللآخر صفة الحياة أي الفاعلية ، وهي هي التي تفرغ على الملاحظة
قيمتها وتضعها في المتجه الحقيقي الذي ينبغي لها .

حين نقول حاضر امة ، ننظر فقط الى هذه الملاحظة في الآن
- بين الامكانيات المادية وتشمل الصفة الاجتماعية والمعنوية ، وبين
طاقتهما الحيوية - وما لها أي لهذه الملاحظة من مستوى يحى عالياً
أو دانياً ، رفيعاً أو وضعياً . . وهكذا قل اذا ما أضفت الحاضر الى
الفرد ، فإنه أيضاً هو هذه الملاحظة نفسها في الزمن .

إن شخصية كاتي نتناولها في هذا الكتاب بالحديث ، كان
حاضرهما تعبيراً عن هذه الملاحظة : بين الواقع المادي للمجتمع يومذاك
وبين واقعهما الشخصي الحي ، على شكل من التكييف الرفيع له ،

بدا جلياً في مظاهر نبل التضحية .

بينما هي اي هذه الشخصية حينها غدت تاريخاً ، تربنا كيف استحداث تعبيراً عن ملاحمة في الفكر بين المادة والحياة فوق حدود الزمن .. أي تربنا كيف استحداث تعبيراً عن وحدة إنسانية شائعة ، نجد نظائرها في شخصيات اخرى لم يعد فيها الا انها عبارات إنسانية خالصة .

وهذا المثل يمكنك اعتماده في قصد السبيل الى استيضاح مفهوم التاريخ الذي نطوبه : على انه الملاحمة بين ما هو مادي وما هو حيوي في الفكر ، أو في ضرورته . . . ونعني : الطاقة المنطلقة الى تحيز آخر جديد ، في الزمن .

ومن ثم لا يبقى عسراً أبداً ان ترى التاريخ كيف هو مقبرة الحدود من اي نوع ، وكيف يكون لنا منه ما هو أشبه بمعمل لتفجير الذرة ، ذرة الآن ، من قيودها في الزمان والمكان ، لتضحي طاقة نفل سارية وتظل مصدر توليد وإمداد . . .

ومن هذا المفهوم الذي نطالع به الحاضر والتاريخ ، نستخلص ونخرج بنتائج ضخمة ، تتصل بقضية القيمة العملية ، وما نستتبع من قضايا الاخفاق والنجاح وما اليهما ، بحيث لا نعي من بعد نفهم

ما وراء المظاهر مما له صفة الحقيقة .

حين نتناول اليوم بالدرس مجتمعا ما - ولنخصص نطاق النظرة فنقول مجتمعا كالمجتمع العربي المعاصر ، متبئين فيه مطارح القيمة والبواعث العامة التي تشده الى النجاح أو تدفع به الى الاخفاق - ينبغي أن نضع النظر قبل أي اعتبار آخر ، فيها هو متوفر هناك من مقومات هذه الملاحظة ، وفيها هو متمم به منها . . ونحن من وراء هذه النظرة نستطيع الحكم بما لا ينحرف عن الحقيقة أو يخطئ وجهها .

ففي المثل الذي التزمناه لا نعتز في كل المجتمع العربي بملاحظة بل باستمرار لماض ، من حيث إنه مجتمع مسبق بكثير من الصفات الأساسية المكونة التي تدخل اليوم في حد الامكانيات المادية أو ما أسميناه « بالواقع المادي » .

وفقد الملاحظة دون ريب ، معناه فقد الحاضر . . وهذا بدوره يستتبع عدم « السأرخ » ، أي عدم القابلية ليكون تاريخا أو ليدخل في حسابه إلا على وجه من السلب .

* * *

وفي هذه المجالة التي اردناها كمدخل خالص يوضح بعض

الايضاح ويفسر بعض التفسير ، ما نحن مسوقون بالذات الى بحثه . .
ليس يعني ان تتوسع في البيان والتطبيق باكثر مما فعلنا ، فالتوخى
هو أن تتحقق من ان الشخصية التي نختصها في هذا الكتاب بالحديث ،
كانت يحاضرها وتاريخها أبلغ مظهر من مظاهر هذه الملاحظة الفذة .

فلم تأت من تاريخ النبوة وقصارى أمرها انها وجه من وجوه
الأخذ ، بل أتت ولها أيضاً حظ اي حظ من المطاء .

ومن ذا الذي يشك في انها كانت شيئاً كثيراً ، من عمل النبوة
وسعى النبوة . . ثم من ذا يشك ، في أن النبوة بين عزمها التي
لا تالين ، ومعين قلبها الذي لا يفيض ، وجدت نقطة انطلاقها
المجتمج .

وبميناً غير حائثة ، بأني ما أخذت هذا القلم مرة ، ودنوت من
سدة عليائها إلا عرتني رجفة ، هي رجفة الشاعر بالجلال المفعم . .
وشأه أن يضيق التعبير بسرّه ، لينسرع للقلب باب تأمله .

في مبرنة الذوات

هنا في مكة . . التي غدت بعد حين مهبطاً من
مهابط الوحي لتثبت في الاسلام على أنها أضخم رموزه ، كنت ترى
- وكأ لك مما ترى على ريشة من جناح حلم - دنيا لا تقع منها العين
على آفاق ولا حدود ، دنيا من حيرة الفكر وظلم القلب الضارب في
سراب .

والحيرة حين تنعقد على ظلماً لا تنقطع عنه ولا ينقطع عنها ،
تتشقق - وهذا دأبها - عن افانين : منها في الوهم ، ولكن الضارع
المريض . . ومنها في الخيال ، ولكن القائم عند منبسط التيه .
وكانت مكة يومذاك ، هي قصة هذا الوهم وقصة هذا الخيال ،
فيما وعت من وثنية باهتة غير ذات حرارة ، انبعثت تتداعى على
ذات نفسها وتنقطع خيوطها في شكل ازمة روح . . اتخذت عند نقر
بادية جحود يعبت ، وعند نقر آخر بادية حياة لا تأمل ، وعند غير

هؤلاء وهؤلاء : بدت آونة بشكل تأمل فقير قصير القوادم غير
موفور الخوافي ، فشأنه مما أعمل انه يسف ولا يعلو . . وآونة
بشكل نشدان بهيم يدور بمرارة من نفسه على نفسه ، كالمهد بشحيج
« المتنبى » وقد (ضاع في الترب خاتمه) .

على مثل هذه الصورة أو على نحو لا يبعد عنها ، كانت تتبدى
جاهلية العرب المتأخرة في مجلى وثنيها المصوحة الداوية .

فقد كانت وثنية من ذلك النوع المنزوف كالومياء ، كل ما منها
انها تقلص بشع ، إن لم ترعب فلا أقل من انها لا تروق . . لا تروق
العين ولا تستهوي القواد ، لا تحمل رمزاً ولا تنهض اليه .

فلم تكن أبداً خصبة مشرقة ، تتنفس بالغبطة وتشيع فيها حرارة
من نوع حرارة الحياة ، لتكون لها القابلية كي تتحد بالاحياء على
نحو من انحاء الاتحاد ، أو لتصادقهم على لون من الوان الصداقة تمتع
الخيال وتمشي فيه بود رفيق .

بل على العكس من ذلك ، كانت مجفوة لا ترقى بخيالها عن مادتها ،
مادتها المنفصلة من حجر بليد قاس . . وهي اذا مدت بخيال ، فبخيال
وحشي فيه بأس وفيه بؤس ، ثم لا ظل في مواقعها لقداسة ولا
لكرامة .

ولذلك لم يستلهمها العربي على أي نحو من الاستلهم . . وفي
شؤون حياته - الدائرة منها والدائمة - كان يتحداها في عنت اذا
صدمت له نزوة ، ويقسو عليها في إصرار وفي موجدة أيضاً مع فورة
رغبة عارضة .

وعلى وجه عام ، كانت علاقته بها علاقة خوف لا اطمئنان ،
وصلة حقد لا ود ، ورابطة كراهية لا حب . . ومن ثم كان لا يميل
الى حسها ، إلا عند ضرورة ملجئة ، وأعني عندما يؤانس من نفسه
الضعف حد الانهيار ، والذعر حد الرجفة .

أما هي حين اعتداده حين اطمئنانه ، فأنها لا تمر في جوه بل
لا يجب ان تمر فيه . . فلا بدع - وهي لا تهب عليه إلا بريح
جديب - أن كان في حسه الا عمق والاقوى ، يود لو تحرر منها .
أقول الا عمق ولا أقول الا وضوح ، وهو يرافق الممارسة ويهيج
مع التحدي . . حتى اذا آذن لذلك الحس الا عمق أن يتضح وضوحه
اللازم ، انبعث بقوة ، وتنفس بهول وانصب بتعطيم .

وهذا لا غيره ، يفسر ظاهرة المقاومة الخشنة التي لقيها النبي (ص)
بادئ بدء ، لتنقلب الى ضدها تنكيلاً وإيماناً فيه ، بعد يسير من
التوضيح ويسير من الزمن .

إنها أي تلك الوثنية لم تكن قطعاً نفى أي غنى ، بدنيوات كالتى
تهد في غيرها ، بدنيوات مشبوبة على كل نحو . . فهي للحب ان
اردت الحب ، وهي للجمال ساعة تريد الجمال ، وهي للارغبات كيف
شئت ، وهي فوق هذا دانية حتى لتخالط في امتزاج ، وقريبة حتى
لتتحرك بإرادة الشهوة المخامرة .

نعم لم تكن مترعة بمثل هذا الخصب ، بل لم تكن عند طرف
منه . . وكان هذا دون ريب من حظ الدعوة الهادية الجديدة ، وكان
لغيرها .

فما ظلك مثل هذه الوثنية مقاومة أونصيباً منها ، وهي اذا لبست
أرديتها وشدت على نفسها بعض صورها ، فليس لانها قوة حقاً ، بل
لان في طبيعتها طبيعة الهشيم وما له من لهبة سريعة الاشتعال بعيدة
السطوع . . ولكن في اشتعالها وسطوعها معنى الرماد ، وفي سرعتها
سرعة الفناء .

إن المقاومة الحقيقية تقتضي الاعماق ، وتلتصم الجذور المغورة
المتأدية . . وما كان الهشيم هشيباً ، إلا لانه جاء قدراً من الورق أي
الشكل وما جاء قدراً من الجذر أي الحقيقة .

فلم تعترف به التربة لتعطيه ، لانه لم يعرفها ، لانه لم يتحدد

باغوارها اتحاد الوجود . . فضل - على انه يغطي منها الأديم ويكثر
فيها كثرة حباتها - شحادة في النبات . . والتربة يوم تسخو سخاءها
الأندي ، قد تفسح له في مجال التبني ولكن ليضيق عنه رحها في
مجال البنوة .

وكان لتلك الوثنية في نفس العرب حظ هذا الهشيم ، ليست
تدفع فيها اندفاعها إلا بمقدار ، فظلت « شحادة عقيدة » مثلاً هو
الهشيم « شحادة نبات » .

وماذا تحسب وراء هذا ، وانت تجد من كرامة محلها وقداصة
منزلتها من الوجدان ، ما تطالعك به رواية : تشهدك رجلاً منهم
بضرب بصلف وكبرياء رأس صنمه بقداحه ، حين خرجت على غير ما
يرغب ويهوى . . واخرى تشهدك آخر ، يأكل في رغبة معدته رغبة
ممتقده . . وثالثة تريك بين هذا وهذا ، وجه رجل أبصر ما ملأه
سخرية واشتد به هزءاً ، فما تلبث أن هتف :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعالب
الى روايات لا تحصى ، وكلها تضع تلك الوثنية موضع القلق ،
وتقدمها في نسيج خلق . . ثم تنعطف لتريك مكان البرم بها في غير
حد من نفوس القوم ، ومكان الضيق بأشياءها في ازورار ونجهم .

وفي النهاية نخرج لنا تلك الروايات ، عربي الجاهلية ذلك البعيد ،
إنساناً لا قداسة لشيء فوق ذاته ، ونعني : الذات في نطاق الجسد
وما يرشح به من إملاءات . . فيها من عمل الأعصاب ، وفيها من
تحييز الشعور بالوجود .

فقد رأينا عند امرئ النيس أية قداسة هي قداسته لوثنه ،
تلك التي ذابت في وهج أوار الانتقام وتحت حرارة الرغبة الحاقدة ..
مثله رأينا عند عمر بن الخطاب ، يوم أكل صنم التمر في غير مبالاة
بقداسة ولا اكتراث بمثالية ، كبير أمرها عنده أنها كورقة الخريف
ذاوية شحطاء .

وما كان ذلك لشيء في النفس العربية يجعلها لا تدين بمثل أعلى
ولا تلين له ، وترتفع بمحلها ليقع كل معنوي دونها .. بل لمكان هذا
الفقر المرعب فيها من شأنه أن يخصب أديم المعتقد ، ويترع مجاريه في
جنبات النفس التي ظلت دامة حرى .

وأنت حين تطعم الظمأ الظمأ وتندي اللهاث باللهاث ، تصنع طبيعة
النفس صنماً للجحود .

وهنا تبرز معجزة الدعوة النبوية على أكمل وجوها ، حين تدرك
إنها لم تعمل عملاً : كل ما منه ، أنه مسح بيد ليصبغ بيد . . وإنها

فرغت الى نفوس تخلصت فيها فاحية الوجدان موئل المعتقد ، لتنقلها
نقطة فقط ، عن نقطة ارتكاز الى نقطة ارتكاز جديد .

وإنما كان عمل هذه الدعوة الكريمة عمل خلق وتطهير وتخصيب ،
عمل صبر وصقل لنفوس عقدها الجحود ، وترك فيها ازمنة تشتعل
وتدور بقيضها اللافت . . وهو لا يدع فدى أو مسه ، ثم لا يسكت
عن طبيعة هذه النفوس إلا وقد أحاطها صحراء قانية تفهق بما تبلورت
اليه من رمال .

والرمال تربة صنعها اللافت حبات ظمأ ، فهي لا تروى ، ومهما
امتصت من سحائب تشد سحائب تظل لاهثة ، ثم لا تحول بما
امتصت أرضاً طيبة .

والنفس المرملة ، أو النفس التي استوت من طبيعتها على رمال ،
تظل ملعب أعاصير لا تثبت من أصرها على حال . . فهي تنزلق
ولا تستقر ، ثم لا تعرف إلا جشع الأخذ وشح العطاء .

نعم هنا تبرز معجزة الدعوة الخالدة ، التي صنعت الواحة كل
الواحة ، في الصحراء كل الصحراء .

ولربك بعضاً من ما أتى هذه الوثنية البليدة ، الجاحدة حتى
لحقيقتها ، الضائقة حتى بوجودها ، نكتني بمثال من أمثلة كثيرة

ونجتزي بشاهد من شواهد لا تحصى ، وما اختيارنا اياه لانه ابلغ
دلالة من غيره ، ولكن لانه يتصل بالشخصية التي هي موضوعنا من
بعض الجوانب .

(حدث ابن إسحق ان قريشاً اجتمعوا في عيد لهم يوماً عند
صنم من أصنامهم ، كانوا يهظمونه وينحرون له ويعكفون عنده
ويدبرون به . . وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم
اربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكنتم بعضكم على
بعض . قالوا أجل . . وهم ورقة بن نوفل بن عبدالمزي ، وعبيدالله
بن جحش بن رئاب ، وعثمان بن أسد بن عبدالمزي ، وزيد بن
عمرو بن نفيل . فقال بعضهم لبعض :

تعلموا والله ، ما قومكم على شيء ، لقد اخطوا دين ابيهم ابراهيم
ما حجر لطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . . يا قوم
التمسوا لانفسكم ، فانكم والله ما انتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم . . فلما ورقة
بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً
من أهل الكتاب ، واما عبيدالله بن جحش فأقام على ما هو عليه من
الالتباس حتى أسلم فلما قدم المدينة تنصر ، واما عثمان بن الحويرث

فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت عنده منزلته .

واما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤودة ، وقال أعبد رب ابراهيم ، وبادى قومه بعب ما هم عليه .

وكان يرى مسنداً ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح أحد على دين ابراهيم غيري . ثم يقول :

اللهم لو اني أعلم أي الوجوه احب اليك عبيدتك به ، واسكني لا أعلمه . . . ثم يسجد على راحته . وله شعر كثير بهذا المعنى ومنه :

أرباً واحداً أم الف رب أدين إذا تقسمت الامور

عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا عزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أرور

ولا غنماً أدين وكان رباً لنا في الدهر إذ حلني يسير

عجبت ، وفي الليالي معجبات وفي الايام ، يعرفها البصير

واستمر به شأنه حتى خرج يطلب دين ابراهيم ، ويسأل الرهبان

والاحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام جميعاً

وعلى أنه شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئاً منها ، فأب يطلب
مكة حتى اذا توسط بلاد الحزم عدوا عليه فقتلوه (١) .

هذه الرواية تحمل الينا الكثير الكثير ، وتوقفنا على ما نود أن
نقف عليه ، وترينا بكل وضوح مكان الرب وحدته من النفس العربية
ومكان الضيق بهذا الرب ، ورغبة التحرر منه على شكل .. ولا بأس
بأن يكون أي شكل ، فهو أحب وأغنى وأمتع .

ولا تعجل فتظن أن هذا الاستخفاف الارتاب ، انما خالط هذا
النفر حسب ، فكأنوا من مجتمعهم الطبيعة ، ومن كثرتهم الصفوة
المختارة .. أما الجماهير الغيرة الضخمة فقد كانت قانعة مغتبية بلذها
ما تمارس من طقوس وتباشر من شعائر ، وما تصطنع من عبادات
تجد فيها عبارة تأملها .. وما يدرينا لعلها كانت تجد فيها أكثر من
ذلك ، تجد فيها تعبيراً أتم أوفى .

هذا صحيح ، لو كانت الرواية المذكورة هي كل ما لدينا من
كوي ونوافذ نطل منها ونستشف من خلالها ، والكن الروايات
- وأريناك جانباً منها - كثيرة كثيرة مطلقة ، وهي كافتها تلح بـكان
ذلك الرب المستخف والجحود المتنكر .

(١) راجع ابن هشام في السيرة ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٨ .

على أن هذا الرواية وإن تك مثلاً خاصاً ، فأما وضعها موضع
البيان والشاهد ، لا صواب فيه ، لتجنى موضحة مبالغ الارتياح وحدته
وشبهه .

وهي في هذا القصد وإفية أكبر إبقاء ومعلنة أبلاغ إعلان ، بأنه
كان ريباً حاداً يتميز بالعنف واللوعة والتساؤل المنطوي على صرارة ..
وليس أدل على خبيثة هذه الرؤية في قلوب أبناء المتحركة فيهم بظفر
وناب ، من شخص « زيد بن عمرو بن ثعلبة » ذلك الرجل المأساة ،
وبعبارة أخرى ذلك الرجل الذي كان يحمل المأساة في الضمير ، يريد
لو يتخفف منها على أي نحو .

انه يحاول أن يهرب ولكن عبثاً يسعى وعبثاً يحاول ، فهربه منها
هرب من نفسه ، وما كان ذلك حينئذ يسيراً ، وما كان ذلك مستطاعاً
سائفاً .. فجد يوسع الخطوة هنا وهناك ضارباً بين فجاج وسهوب ،
يتمس بقيته الضائع وأطمئنانه الشرود .

انه ليس بمطيق أن يسكن الى ما عنده ، وهو حين يسكن اليه
أو حين يحاوله ، فأما يجمع نفسه الى حيرة بالغة الاسى لا تتأ تدور
عنده مثل من الشوك اللاهب وتتوهج في خياله « كإراني الرماح »
على حد تعبير والبة بن الحباب في القديم .

وأي طعم هو أكثر مرارة وانقذ واخزة من قرله :

أرباً واحداً أم الف رب أدين اذا تقسمت الامور
حين تدنيه الى نفسك وتستشعره من قريب . لاشك ، تجد تفجماً
وتجد لوعة ، وتحس بنفس الطوت من ضميرها على مثل شواء له طعم
الاحترق . . ثم لا رب في انك واجد أيضاً حرجاً كثيراً وضيعاً
بهذا الحرج ، وتقادماً منه بالاستسلام المستغلق في عبارته الاخرى :
(اللهم لو اني أعلم أي الوجوه أحب اليك عبدتك به ، واكني
لا أعلمه . . ثم يسجد على راحته) . . .

وما نحن الآن من هذا الأمر على كبير شأن ، فانه سبيل من
يبعث الجاهلية وقيمة وثنياتها ، ويؤرخ لهذه وهذه . . أما هي في
عملنا فلا نخرج عن انها نقلة بقتضيتها البحث وقنطرة يفرضها العبور ،
الى تبين الموقف الذي اتخذته السيدة خديجة لنفسها من وثنية
الجاهلية في ظل الوثنية .

يقطع الباحث بان حسها لم يكن الا من نوع الحس العام الذي
حارلما عرضه في رقعة سريمة ، وإدناؤه اليك في الإمامة قصيرة . . ثم
اضف الى هذا ، انها لم تكن بعيدة عن جو هؤلاء الصفوة الذين
انبتنا لك من خبرهم .

فهي أدنى ما تكون من ورقة بن نوفل بن عبدالمزى ، ودونها
منه كان على نحوين من الدم والود السكري . . وكان هذا الود أو
القراصة الفكرية ينتزع إعجابها به انتزاعاً ، ويحملها على كل لون من
الوان الخلود اليه في اشياء من السكينة واشياء من الأطمئنان . .
وبالغ عندها ، حتى باتت له وهي أشبه بتلميذة لا تبرح تعتمد في كل
ما يعرض لها ، من أمر نفسها وشؤون دنياها .

فلا جرم كانت من هذه الباحية أرهف حساً بما لاشواك هذه
الوثنية من وخز ، وأصح ادراكاً لما في جوهرها من تهافت ، واطرع
فؤاداً بالنلف والشوق ، وأرحب نفساً للتقبل المطمئن ، لتقبل رسالة
الوحي الجديد . . رسالة الخلاص .

وهذا ليس تقديرأ نحن نقدره ، بل جاءتنا بجانب منه المصادر . .
فما اتفق لها من عهد الجاهلية لم يكن مكفوفاً عن النظرة المنأملة ، ولا
مقطوع الصلة بما يراد الطبيعة المنتخبة . . هذه الطبيعة التي تغدو من
كل حيل مستقر ما يحيش به من أحلام وامن وتطلعات بحيث يكونون
عبارته البارعة الاداء ، وموئل ما يخامر الناس من مناغم حب ،
وحنين هو رجع أصداء الجهول ، واشواق كبيرة تريد ان تتكشف
البعيد .

والسيدة كما أنبأناك وجهنا في ان ندني اليك ، كانت من هذا
النفر « الطليعة » . . وعلى أي حال ، لم تكن تبعد عنه في مذهب
تأملها وتفكيرها ، وفيما نخزن من تصورات وأحاسيس وفتات
مشاعر .

كان من حقها - وهي الموهوبة التي كأنما السماء تعدها للنهوض
بعبٍ عظيم - ان تمكر ، وان تذهب في مدى تفكيرها عميقاً عميقاً .
وكان من حقها ان تصل فكرها بأفكار الآخرين الذين ينحون هذا
المنحى وينهجون هذا المنهج . . كان من حقها ذلك لتتخذ لنفسها
موقفاً فكرياً معيناً ، يكون أقرب للرضا وأدعى للطمانينة . لا سيما
وكل ما تحفل به البيئة وتقدمه من مواد فكرية لبناية العقل ، لم يكن
باعثاً على الثقة بل على العكس ، محرضاً على اللجاجة اللاعبة والاندفاع
في تيار تساؤل عريض .

وبالفعل مالت مع هذه الرغبة المستوفزة في نفسها ، ولم تقنع به
ميلاً فقط ، بل انبعثت تشبعه بما تسعفها به الوسائل الميسورة ، وما
لم تكن تنهض وسائلها به من ذلك تلتمس اصابتها بالسؤال .

فكنا نراها - وكثيراً ما نراها - غادية راححة ، تقصد مشوى

مرشدها الذي أتممه « ورقة » ، تستبدئه تارة عن كنه رؤباً ،
وتارة عن مستغلق سر .

ويكفي لمعرفة أي نوع من الافكار كان يشغلها ، وأي نوع منها
كانت بالفعل واقعة تحت سيطرته ، ان نستعرض بعض مناماتها التي
سمحت بحملها الروايات اليها ، ولا استعجلك بسردها فستمر بنا على
منازلها من الموضوع .

ولكن المهم هنا أن نشير الى انها لم تكن تخلو من هذه المواد
الاولى (الآله ، السما ، الاوراح ، النور) ، وواضح أنها مواد تتصل
بنوع معين من الافكار ، لا سيما حين نلجأ في فهمها الى منهج
التحليل الحديث الذي يقطع بنوع معين من الافكار كان يهجم في
نفسها ، هو ذلك النوع السألي الظالم .

إنه يقطع بهذا ، ويقطع عندها أيضاً باختزان ضخم لاحساسات
وخلاجات ومشاعر بل ولتجربات روحية واخرى عاطفية .
والملت في أحلامها ، انها كانت دائماً بيضاء مشرقة . . ومعناه أن
نزوعها على رغم ما يصدمه كان مشفوعاً بالأمل المحض ، وتقرب
الاتتصار .

على سبيل الفهر

في بعض ولائد الجمال ، ما يخلب الجمال نفسه ..
إذا صح ان للجمال حساً يضمه هذا الموضع من الافعال ، ويجري فيه
بهذه السنة التي نخضع نحن لأحكامها ، ونقلب في دائرة مؤثراتها .
وما بدرينا ان لا يكون الجمال على حس وحياء ؟ . يتذرق مثلنا ،
فيحب وبكره ، ويدنو في هوى ليلباغ في فتنة .

نعم ما ادرانا ان لا يكون كذلك ، وهؤلاء « الأغرقة » الذين
وعوا الجمال حق وعيه واثروه في انفسهم مباشرة ، انما تصوره
وصوره ، على انه حياة تفنى بالماطعة مثلما نفى ، وتصيب منها مثلما
نصيب .

ومها يكن ، ونميل الى الاقتصاد في التعبير - فنحن نجد ما من
موائل الجمال إراء شعور مختلف ، يتنوع على مقدار ما في الطبيعة
من أنواع .. فيكون خصباً وبكرن غير ذلك ، ويكون بهجة ،

ويكون روعة ، الى احساسات لا تنهض بها الكلمات إلا بقدر وقدرة
يسير .

ويظل من وراء هذه كله ، أخلب الجمال هو ذاك الذي يبعث
قضية ويقوم من نفسه على عقدة . . إذ يسمح لشيء آخر غير الفؤاد
بالتدخل ، إنه يسمح للعقل بأن يتدخل فيه بعنصره الفكري ،
فيضيف اليه معنى لم يكن من شأن الجمال - وطابعه البراءة - ان
يمطيه ، معنى يجيء جديداً في الجمل . . حتى في حسن الجمال نفسه .
حتماً إن ما يخلبنا في الوردية ليس هو هذا الجمال الساذج ، من
العبير والصفاء ، من الأضواء والظلال . . بل هو هذا ، وشيء آخر
بتدخله أحدث قضية ، إنه ذلك الشوك الملتف المكتنف ، وهو ليس
من طبيعة الورد ولا من سره .

إنه بتدخله نقل قضية جمال الوردية ، من بساطة الى تعقيد ، من
وضوح الى غموض ، ورسم تساؤلات واستفهامات ، وبث مشاعر
وانوار خواطر لا طاقة لبساطة الجمال بها في هذه وهذه .

فأمامك من الوردية في زهرها وشوكها : لين وصرامة ، افتتار
وتعطيب ، سماح وتجهم ، حب وبغض . . وأمامك من هذا كله ،
أشياء تدنو من أشياء ، وتعبير آخر لاشياء تثيرها أشياء .

وإذا أنت من تداعبها كلها وتواردها جميعها ، امام عقد كأعحق
ما يقع لك وادق ما تدفع للذكر . ، وإذا أنت من الوردة حيال حياة
كاملة هي نخفل بكل ما تزخر به الحياة ذاتها من ارسامات : إن
شئت ابصرتها مآسي ولكنها جميلة ، وإن شئت ابصرتها مظهر آ من
التأكيد - تأكيد الطبيعة - بأن القوة للحق ، وإن شئت سموت
نأبصرت : بأن الشوك ايضاً يتشقق عن طيب ، وإن قلب القلب قد
يفيض بأبرع الجمال انداءاً ومعاقد اضواء .

ولا نطن انها - في مرورنا العابر غير الشاعر - لا تهجن عندنا
بكل هذه الهاجسة ، وتمس لنا بكل هذا الهمس .. بلى ، انها تفعل ،
ونحن نصيب منها في وضوح او غيره ، وعلى مقدار ما نصيب منها
تقف متأملين ما فيها من سرحات ، مأخوذين بما قامت عليه من عقدة ،
عقدة جمال .

وانا ما اذكر يوماً وقفت فيه ازاء زنبقة الغور - هذه الزنبقة
الشاردة التي كأنها اعتزلت في قصد ، وطلبت النجوى في رفات عبر
تسر بها سرّاً ببالغ الجهر . . وتلهم نفسها في المنعرج كأنما لتبائع في
وثبة القمة - الا وتأودت على كف احاسيس تأود الأمود ، لا أحقق
منها الا ان بمضها نشوة ، وبمضها امتلاء بشي كبير ، بطوف زاهر

هو اكبر من كل كيان .

إنها جملة دون ريب ، ولكن خلب جمالها يقوم في ان تظل حيث هي من المنقطع ، لذي لم يتراخ بها الى اسفل ولم يشد بها الى فوق . . هي ان تظل كأنها مشدودة وكأنها تتماثل مستشرفة العلاء ، واعني ان تظل في هذا القلق الذي تثيره ، وترسم خطوطه في حركة صريمة .

فهذا المنقطع اكسبها عنصراً جديداً ، جعل في جمالها قضية و اشار الى حادثة ، فهو اذن جمال موحٍ بزرع الخواطر في لفظة التأمل .



واذا انتقلت بهذا المفهوم من دائرة الى دائرة - إذا انتقلت به الى دائرة الحبي الشاعر بوعي الشعور ، نجد انه لا يختلف عليك في قليل او كثير ، نجد جمالا يتفاوت عن جمال بما يتضمن من هذا البث الحفي . والسيدة خديجة ، ما كان اقربها واشبهها بزنقة الغور ، فيما اجتمع لها من جمال حفلت الروايات (١) بأخباره ، وفيها اجتمع عليها

(١) راجع كتب انسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية للي بن برهان الدين الحلبي ج ١ ص ١٣٧ ، والاصابة لابن حجر ، ج ٨ ص ٦١ - ٦٢ .

من ارزاء جمات حياتها مسرحاً يختلف بأعاصير ما كانت تنقطع الا
لتتصل ثقيلة مرهقة .

كان جمالها من ذلك النوع الربان الأخاذ : صباحة وجهه ،
ووضوح قسما ، وانشوة لحظ . . يزيد به حديث عذب ، وقلب
مفعم بالخير ، وخلق مجتمعم ، وعقل بعيد الفور ، وتديبر استوى على
حزم واثانة .

فكانت في محل الادلال من ذوبها لذلك كله ، وابوها «خويلد»
- وكان يرى تنافس سراة قریش واشرافها على طلب يدها - يتناهى
به زهو ، يبرز في شكل شح بها حيناً ، وحيناً بشكل موازنة وتخير .
واستمر هؤلاء على الحاحهم واستمر هو على تربيته الذي طال به ،
ثم عقد امره وزفها الى «ابي هالة هند بن زرارة التميمي» (١)
وكان سيداً على جاه وغني . . فسكنت منه الى ود وارف ، وانجبت
له «هالة وهنداً» (٢) ، فازدادها تعلقاً ومقة . على انها لم تلبث

-
- (١) في الروايات خلاف فيما تزوجته اولاً منها ، واعتمدنا هنا ما جاء في
المواهب اللدنية للزرقاني وان كان الاكثرون من اصحاب السير والتواريخ على
أن الأول منها كان عتيق بن عائد ، ولا مجال هنا لبيان وجه الترجيح .
(٢) سميتها كذلك باسماء الاناث على عادة العرب من وضعهم اسماء الاناث
لذكور وقاية من الحسد . رهالة ادرك الاسلام وكانت له صحبة . واما هند فقد =

ان فُجئت به ، وهي ارجى ما تكون له وارجى ما تكون منه ،
واستحال في ومضة ما كانت تملأ به عيניה ، كخيطة نجم ابتلمه ايل
لاحد لعمقه .

هي بالحنة او تسكاد تكونها - غربت في جوها حياة مطمئنة
مفتبطة بكل الوانها ، لتستقبل حياة متولدة فلقمة بكل الوانها . . فما
تسلبت ، وما خرج بها فرط الأسى ، وإن آدها ما لنيت منه .
إنها مالت تدفن احزانها في سمو صبر وكبرياء احتمال ، وتمسح ما
بها من عمق الجراح بشفاء طفولة كانت تتفتح في يديها نظرة عذبة .
طفولة هي مدعوة لحمايتها ، وهي تطالبها بالكثير من وجودها ، تطالبها
بالتضحية توفيراً لها من أهدائها وتزيراً لآلامها .

فما كانت لتخفق بأسامها الفاحم ، بسمة صغيرة ينفثها لها ان

طالت صحبته وكان وصافاً روى عنه الحسن ابن اخيه فاطمة (ع) حديث وصف
الذي وهو ابلغ ما روى ، وقتل مع علي (ع) يوم الجمل وكان يخرجه يقول (انا
اكرم الناس أباً واماً وأخاً وأخناً ، أبي رسول الله لانه زوج امه وامي خديجة
وامي القاسم واخي فاطمة) . وعند السهيلي في الرض الانف أنه مات بالطاعون
في البصرة وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفاً فشغل الناس بجنازته
عن جنازته فصاحت ناعيته (واهنداء بن هنداء ، وأريب رسول الله) فلم
تبق جنازة الا تركت واحتملت جنازته على أطراف الأصابع اعظاماً لأريب
رسول الله (ص) .

تفتر ، بل من حتمها ان تفتر مزهرة مشرقة . وكذلك انقطعت الى
 شؤون ولديها تحضنها الرماية اكرماها ، والحنان اعذبه وانداه .
 وعلى انها خلت بينها وبين الناس ، منصرفة الى ما هي فيه من
 عبء : بمضنه فجيعة نفس وبعضه صنع طفولة ، كان لا يكف فتيان
 قومه عن التماسها ، وكل يريد لها لنفسه . . يغريهم بها غير شبابتها
 ووسامتها ، قوة شخصية بدأت تطل وتبرز ، ثم رفرة في مالها .
 ولكن كيف السبيل الى ان تفكر في زواج جديد ، وهي لما نزل
 تذكر « أبا هالة » بخير ما فيه ، ولما نزل طعونة ولديها تطالبها بكل
 اهتمامها وحديثها .

غير ان أباهما « خويلدآ » وعمها « عمرو بن اسد » الحاهما
 بدورهما ايضا مع الملحدين الكثر ، [فأبوها وعمها شيخان ، هامة اليوم
 او غد] ، وهي في حاجة الى كنف تستدفع به وتقي منه الى ظل
 ظليل .

وفي غير نشطة ، وبعد لأي ، رضيت بأن تجرب حظها من جديد ،
 فأقترنت الى فتى من علية مخزوم واجوادها ، هو « عتيق بن عائذ » (١)

(١) هكذا بالهمز أو بالنسأ التحتية والذال المعجمة في رواية ، وفي رواية
 ابن عابد بالباء والذال .

فأعطته من ذات نفسها وبرها ما يخاق بمثلها ، وكان ان استولدها
طفلة دعته « هنداً » (١) ، وكان ان اهتبله القدر منها في هذه
المرّة ايضاً ، كأنها باتت والفجيرة على موعد .

فلا بدع أن طار في قلبها اتون حزن ، كان له في شؤون عينيها
مجارى دمع لا يرقأ .

والسيدة خديجة ان حزن حق لها ان تحزن ، ومصرير الحزن
ايضاً ، فلاسى يوقظ الأسى ، والمصاب يحى المصاب ، وابو هالة غداة
اليوم كأنما لم يفصل دونه امس بعيد . فذكره تخطت حواجز
الذكرى لتحى ايضاً في ندوبها الطريئة ، واخزة وخزها طائفة
بأشواكها .

وانما انى معتنق اللجة تعلو بها وتهوي ، وتكثف حولها وترق ،
فضى والدها ، فلم تمسك من نفسها جزءاً واشفاقاً . . لقد جرعت
القصة اكوساً دهافاً ، جرعتها حتى التالة .

فكانت - من أمرها مع القدر وأمر القدر معها - صنو زنبقة
الفور ، فيما تبث من إحياء وتبث من شؤون .

(١) ادركت الاسلام وكانت لها صحبة وتزوجت صبي الخزوي وكان لها منه
غلام اسمه محمداً .

وجالها المرزأ او المحدث بالأرزاء ، يقفك منه عند عقدة تأمل ،
تثير فيك كثيراً ، وتفتح قلبك على صور غنية بجملها غنية بآلامها ،
وهي في هذه وهذه مشوبة بأسرار . . وما استغلق ذلك حتى على عقل
الجاهلية ، فكانت تدعى اثناءها لمكان هذا الحس « بالظاهرة (١) » .
نعم هي صنو زنبقة الغور وليس فيها اتفق لها من مآس جملتها
بعيدة عن دنيا الناس ، معتزلة في المنقطع البعيد ، تأنس الى وحدة
قاسية تطعمها من آلامها . . بل كانت كمثاها فيها اجتمع لها من فكر
باعد بينها وبين الآخرين ، وتزيده هذه الآلام حدة واستعاراً .
فقد كانت من عهد الوثنية - كما عرفنا - في المحل القلق ، وكانت
مستقيمة بل منتسبة الى لون ما يفكر فيه ذلك النفر « الصفوة » . .
وتداركها هذه الأرزاء ، حمية حمية ، ومن شأنها أن تحمل النفس حملاً
على التأمل ، وتصنعها صنماً للتعرف .
ألم تكن من حياتها التي نعرف ، في معركة قاسية مع القدر ، هذه
القوة الخفية الخيفة .

فما هي هذه القوة ؟ وما حقيقتها ، وعلى أي ناموس تمرى وتسير

(١) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٣٧ وهو مستفيض في غيرها ،
كلاسيكيات لابن عبد البر وأسد الغابة لابن الاثير .

ولم تختلف في مواقفها : فهي بسطة كف عند هذا وانقباض كف عند ذاك ، وهي هنا نماء دون عرف وحد وهي هنا بأساء دون عرف وحد ، الى مساءلات كثيرة بينها وبين نفسها ما كانت تحير جواباً عنها .

بيد انها تصطفق في ضميرها وتصطبب ، وتزدحم في رأسها ازدحاماً صراً ، يجعلها دوماً كمن هو في شأن مع نفسه . . تعالج ما وسعها المعالجة ، وتقدر ما أسعفها التقدير ، وتفكر ما أطاقت .

لقد كانت ترى ظاهر القدر ، فتعفى بسرّه وتنوء بثقله . . ومن اين لها ان تعرف خافيته ، وأنه إنما يذهب بها مذاهبه تمليلاً لطبيعتها بالترفع ، واعداداً لحقيقتها بالصقل والتهديب ، وتفجيراً لينايع ذاتها بالزلزلة والتخديد .

نعم من اين لها ان تعرف سر قدرها ،
وأن هذا الابتلاء كان سبيلها الى ذلك الاصطفاء .

* * *

انتهت - كما رأينا - الى عزلة سمورت بها نفسها ، وكانت عزلة وجدانية خالصة ، فلم تقطع صلتها بالناس وباشياء الناس ، ولم تجف

الحياة (١) وما الى الحياة . . بل ظلت قريبة من الناس قريبة من
الناس قريبة من دنياهم ، آخذة بأساليب حياتهم تعمل كما يعملون أو
لعلها تعمل وتعمل أكثر مما يعملون ويعملون .

فهي تشعر بمسؤولية من دفعت الى الشهور بمسؤوليتهم دفعا ،
تسهر « بأفراح زغب الحواصل » يطالبونها بكل شيء ، ومن حقهم
ذلك ، فلم تتردد تسعى لهم مثمرة أموالها على وجه من وجوه التتمير
منمية ثروتها على ضرب من ضروب الانماء ، مغتبطة بأنها لم تضيف
على ثقل الواجب ، قانعة بكونها أبدت وتبدي بأنها أكثر من
السلامة .

كانت صلتها بحياة الناس في حدود أساليبهم اليها ، أما فيما وراء
ذلك : في أفكارهم عنها ، وتقبلهم لها ، وإقبالهم عليها . . فكانت في
عزلة مغلقة ، تعيش بوجدان آخر غريب ، بوجدان يحجب (٢)

(١) ورد في كتاب روضة الاحباب انها كانت تحوط نفسها باباب
الرفاهية لترفل في حلال فاخرة من منسوجات الهند وتقتن منزلا فخما ذا طابقتين
يسرح فيه عبيد واماء ومؤتتا بالرياش والمقاعد المطعمة بصنوف العاج والابنوس
والصدف من صناعة دمشق وغيرها من مراكز الصناعة في تلك الأيام .

(٢) يظهر هذا في قولها للنبي (ص) لما اخذت يده تضمها الى صدرها
(بأبي أنت وامي ، والله ما أفعل هذا لثيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي =

صاحبة المجهول ، يحاول اقتحامه ويأانس بغشيانه ، فان لم يكن
فبأستشفافه .

كانت تعيش بفكر غير فكر أولئك الذين يشاركونها الحياة من
أبناء قومها ، ولغاية غير غايتهم ، وبأحلام أمان غير أحلام أمانهم ..
لقد صهرها الألم فلم تعد ترضى بالحياة على انها هذا الشئ الساذج ،
ولم تعد تقنع من غبطة الحياة بهذا القدر الذي يقنع به الآخرون ..
فانقطعت لأحلامها وكانت أحلاماً كبيرة مجنحة ، واستبدت بها
وترايدها ، فهي ترودها في صحوة وغفوة ومع بقطة وسبات .

فكان من أحلام يقضتها ما جاءت به الرواية ، (من أن نساء
قريش بينما هن مجتمعات في عيد لهن عند البيت ، اذ تمثل لهن رجل ،
دنا فنادى بأعلى صوته :

يا نساء مكة قد آن ظهور المنتظر ، فمن منكن ستكون له ؟ ..
فكذبته ورمينه بالحصى ، وكانت خديجة بينهما فلم ترمه كما فعلن ،

الذي سيثبت . فان تكن هو فاعرف - حق و - نزاتي وأدع الآله التي سيثبتك لي
فقال النبي لها والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا اضيعه أبداً ،
وان يكن غيري فان الآله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيقك أبداً) .
السيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٠ .

بل لبثت في مكانها مطرقة واجمة ، لا تستطيع حراكاً مما اتت بها من
دقات قلب (١) .

السير وكتب التاريخ تردد هذه الرواية على نحو من التأكيد بأنها
حادثة وقعت بين كل هذه الذنوة والمناذي الغريب ، وقد يكون ذلك
حقاً لا لبس فيه فليس مما يستبعد وقوعه .

وقد يكون واقع الحادثة ليس الابن السيدة جديجة وبين نفسها
أي صورة من أحلام يقظتها ، رأتها جليلة واضحة ، وسمعتها أيضاً
جليلة واضحة ، وتداركتها برجع الحس دقات قلب وقعت ملياً تحت
ميدانها الراجف .

نعم قد يكون واقع هذه الرواية واقعاً نفسياً عند السيدة الكريمة
ليس في شيء من طبيعة الزمان والمكان ، وجلاه لناظرها مشهداً
ممتداً عريضاً ما هي واقعة تحته من تيار روحي عميق .

انا لا أستبعد أن يكون هذا كما لا استبعد أن يكون ذاك ،
وان كنت اجدني أكثر اطمئناناً الى انه من نوع احلام اليقظة
عندها ، لأنه أكثر انسجاماً مع ما كانت فيه من يقظة حسن رهيف .

(١) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٣٩ ، واثبتها ابن حجر في الاصابة
عن الدائني .

أضف الى هذا ، ما كان يساور فئات كبيرة من الجاهلية
يومذاك ، من هداة انتظار شاخصة ولفتة ترقب مشتملة ، لفكرة
خلاص في شخص مخلص .

وهذه الفئات احتسبها ضرورة في عقم بناء المجتمع ، وفي عقم
روحه ونزوع تدينه . . وألقته في روعها بكثير من القطع والتأكيد
طائفة من أهل الكتاب كان العرب يومذاك ينزلونهم منزلة المعرفة
وثقتها . . وهتف بها نفر غير قليل من رجالاتهم . . وتغناها لقيف
من شعرائهم بينهم امية بن ابي الصلت حتى لوقف جل شمره عليها .
اذن كان في نزعة المصر كله هذا الترقب ، وعند الطليعة لم يكن
ترقباً فقط بل احساس بمخاض .

وطبيعي - والسيدة خديجة محمولة على مثل هذه النزعة العامة ،
ومعطية اذن في لذة لأغانيها ، وفاحة قلبها في هوى لرؤاها - ان
تسكن في عزلتها المفكرة الى أحلام تمشيها وتجد نفسها فيها ، الى
احلام بيضاء غاية في البياض نقية غاية في النقاوة ، الى احلام مواسية
لجراحها العميقة .

وسنرى بعد بآية حرارة هي تضم يد النبي الى صدرها ، راجية
وليس شيئاً الى الدنيا أو شهوتها (إن تكنه فأعرف حتي ومنزلتي ،

وأدع الآله الذي سيبعثك لي) . . انهما بدت ظمأى الى معنى إلهي
يطيب لها اشراقه ، فياتي بعيداً بعيداً ، ما عليها من ظلال كثيفة هي
لا تفناً تشعر بشغلها وإرهاقها .

مثل هذا هي ترى في أحلام يقضتها ، ومثله ترى فيما يرى الناس . .
فقد جاءت الرواية بأنها رأت (كأن شمساً عظيمة تربط الى منزلها من
تاء مكة ، فيغمر ضوءها ما يحيط المنزل من أماكن قصية وبناع .
وتهب من نومها مضطربة ، وتسارع الخطون نحو دار ابن عمها « ورقة »
تقص عليه ما رأت بأسرار واجفة ، وذبذبات بسر الرؤيا بوجه
منهل ، وان تلك الشمس علامة مجيء المنتظر وحولها بمنزلها علامة
أنها تحضنه وتبيت أدنى ما تكون منه) .

هي رؤيا ولكن أسلمتها الى نشوة ، أو قل الى طوفان روحي
بحرك أفصى أمنياتها ، ويشعشع بالري كاسات نفسها العطشي .
هنا . . تسكت السير وكتب التاريخ ، فلا تقدم لنا السيدة
خديجة في حقيقة ما كانت تحلم به ، وفي لون ما كان يرادها من أمل .
وفي غير الحلم وغير الأمل ، تقدمها في صور من أفكارها ومشتبهات
روحها الكبيرة ، وبتعبير أخصر : في كل ما غنيت به عزلتها ، من
حياة قلب ، وتلهف وجدان ، وتطامع فكر .

تسكت هنا السبر فلا تؤرخها هذا التاريخ أي التاريخ الروحي ،
فتحفظ ما كان لها من تجارب وجدانية وما كان لهذه التجارب
عندها من ارتسامات . . ونحن حين نفرغ لها اليوم ، فانما نحاول ان
نستقطر نكتف الأخبار استقطاراً ، وان نتملق بأشاراتها بأكثر من
حروفها ، وان نمنع النظر فيما تلوح اليه بنصيب أكبر جداً مما
تلوح به .

وعلى هذه السنة من النفاذ الممن في الباطن أقول : ان عزلتها
المنأمة وما اتفق لها فيها ، جعلتها نحس واحساساً قوياً بأنها كائن
غير عادي . . نحس بأنها منتدبة لرعاية رسالة عليا ، فيها من وجد
قلب الأرض وسخاء قلب السماء ، فيها قبس حنين من هنا على قبس
حنين من هناك ، انسقا في لحن كان في سمع الأبد اذ كان في سمع
الأزل .

باتت تطمئن اطمئناناً بالفا الى انها منتدبة هذا الانتداب ، لاسيما
وكل ما صادف ووقع لها كان يؤكد عندها هذا الاطمئنان .
بيد انها رسالة لا تحدد منها ولا تدرك من كنهها ، الا انها معزية
تداري كلوم قلب الانسان وتمسح ما انطوى عليه من مدة وما يجري
فيه من صديد .

هي لم تكن تحدد منها الا انها شي جميل بذشر البهجة ، فلا بدع
- وهي المشتملة على كلام شتى : بمضها في القلب ، وبمضها في الفكر -
أن مالت نحن الى هذه الرسالة اي الى معنى الخلاص فيها .. وما استمر
حينئذ ، فكان يتزايدها يوماً بعد يوم ، فهو وجد ، وهو هيام ، وهو
تعلق وانجذاب .

وكما لم تكن تحدد من أمر هذه الرسالة ، لم تكن تحدد من
يكون الرسول .. ولما كان - وهو لا ينفصل عن الرسالة كالباء
لا ينفصل عن الدواء وبرغبة البرء نحن نرغب به - بات في مكان وجدها
وهياها وتعلقها .

هي لا تحدد من هذا الرسول ، الا انه بهي بهاء الرسالة ، ندى
في مثل نداها ، جميل في مثل جمالها .. فتمتحت له قلبها كزهرة
تستقبل برغبة العبق ندى الفجر ، لأنها في حاجة الى ان تيمس بالطيب
وتهدد بالعير .



في حي قريش - وحي قريش كمثل حي منكش ، يقع الخبر في
اية أذن ساعة وقوعه ، ولا تمشوفاشية في جهة منه حتى تغدو في كل
منارله - كان الناس يتحدثون ويوسعون في الحديث :

كم هو رائع هذا الفتى ؟! وكم هو رائع حين يغشى العين، وعذب
حين يغشى السمع ؟! .

ثم يتحدثون وبوسمون في الحديث : ولكن ما شأنه ؟ ما به ؟ .
انه شاب ملء عين الشباب والكنه عزوف يتحاشى كل ما للشباب من
مناسك وفروض : في اللهو وما تجده لاهياً ، في المجانة وما استخفته
مجانة أولون فيها . . ويمر بهم ، فيشغلون عن حديثه بنأمله .

كان الفتى محمداً ، وكان الحديث المودرد الحديث عنه . . وهو
في دارة مثله في اخرى ، حديث حب و إعجاب يشوبه تساؤل حائر
واستفهام مستغلق لا ينقطع الى صواب .

وكانت تفارق هذا الحديث تنوزع لتجتمع عند السيدة خديجة
وتنتشر هنا وهناك لتجد الملتقى في دارتها .

والسيدة تصغي اليها في نشوة لا تدري بمبعثها ، وتسعى سعيها
الى الاستزادة منها بدافع خفي غامض لا تلمله . . على أن مشاعرهما
بدأت تتضح شيئاً فشيئاً ، وملامح أحلامها المبهمة بدأت تتداني
لترسم كلها وجهها ، كان وجه هذا الفتى .

ولم لا يكونه ؟ . . ساءت نفسها طويلاً وانتهت الى اطمئنان
ونأكد .

نعم لم لا يكون هو أباه ، ذاك الذي ترتقبه ، وأجيال ضخمة من ورائها ترتقبه في لحظة الانتظار . . إنه من هاشم وفيها الينبوع ، وأنه ما يتحدث الناس عنه وهي ملامح لا تجتمع للعاديين .

واتصل بها همس من هنا وهمس من هناك ، بفرائب تقع له وهي ليست من عالم الناس ، فاردادت ثقة باطمئنانها . وما عليها ان تطمئن ، وفي أعماقها ما يهتف به ويشير اليه .

كان حلماً في الخاطر لا يتحقق منه وأشرعت له قلبها وملأت به عزلتها ، فكيف وقد شخص لها في حياة هي أملاً ما تكون حياة .

لقد وقفت عنده بكل آمالها وأحلامها ، وانقطعت اليه بكل هوى قلبها المتوهج كأول عهده بالحياة ، وكان انطوى على ظمأ كظيم . . .

باتت السيدة خديجة وأحلامها تمانق شخصاً لم يعد شيئاً في الضباب لا تكتنه منه ، فهو غامض غموضها ، متزايل الملامح تزايلها ،

متراخي القصات على تحجب تراخيها . . بل مل برديه حياة ، وحياته مل عين الأحياء . فرت في هوى القلب من حال الى حال ، وأدركتها

نقطة من حب خيالي خالص ، بعضه فكر وبعضه أسان ، الى حب وجد سبيل تجسده في أبناء الناس .

وبينهما في شدة التعلق ، كما بين الواقع وما فوقه . . فالقراشة تحلم

بالمصباح وتغنيه أغانيها وتشتمل منه على وجد ، ولكنها - وقد دفعت
إليه من قريب - لا تحول عنه ولو في الاحتراق ، الذي تحسه عذبا
ليس فيه معناه ، بل معنى احتراق في اللذة . . والاحتراق في اللذة ،
لذة تضاعفت أو لذة فحرت كل قلبها .

وخديجة في يومها ، كانت هذه الفراشة التي وجدت مصباحها . .
فلا بدع أن استوت من تعلقه على عنفوان ما شئت حسبته ، في
الخطر فهو صور لا ترح ، وفي القلب فهو نبض الظمأ على لسان الآل ،
وفي الأمنية فهو هو الأمنية . . .

وتلفت تاتي البشري عمة محمد تغشى دارتها ، ولا ريب لأمر . .
وداعبها أمل لشد ما باتت ترتقبه .

فأوسعت لها في مجلسها ، وأوسعت لها في قلبها ، وأصفت إليها
بانتهاء أو شك أن يثب إلى الخاطر في مستقره البعيد .

فمرضت عليها - وما أحبه عرضاً لو تعرف - أن تراجع محمدًا وإن
تعتمده في تجارتها وكانت واسعة ، فما أسرع ما أجابت خديجة
بخاصرها بشر كاد يظهر ، وما أسرع ما انبسطت في غبطة باذلة له حظاً
أوفي وأصيلاً أوفر (١) .

(١) . بالاستناد على المصادر الوثيقة تقع على مجلس طعام ضم أبا طالب واخته =

راق لها أن يكون ذلك بداعيتين : من ود حفي : ومن ابتلاه
 تمكشف خلاله من طبيعته ما هو أكثر وأكثر . . . وأنسق لها ما
 أرادت ، فقد اتصلت أسبابه بأسبابها من قريب ، وبات تتلقاه (١)
 وليس في خير تستخبره ، أو على أكف حكاية تقع اليها .
 رأت منه فوق ما كانت تظن ، وفوق ما يتحدث به الناس . .
 فهو بشرية جديدة فيما تعرف وكل ما فيها يخلب ، طوية وبادية ،
 جوهرأ وحلي : في القلب وما للقلب من مواقع أهواء ، في أخذ
 الناس وما لهذا الأخذ من شوائل .

وورد غلامها « ميسرة » - وكان كبير عمالها المؤمنين وكان
 صحبه - بعد سفره بلغت بهم مشارف الشام ، واخرى واخرى بلغت

عتيقة ومحمد ، وما ان قام محمد الى بعض شأنه حتى أخذنا بحديث عمله وترتيب
 أمر دنياه ، وافضت العمة برأي أن يعمل في مال خديجة كما كان الشأن يومذاك
 بالمرايعة أو بالاجر واستصوب العم الرأي وأشار به على ابن اخيه ، فاجاب
 (اذا شئت خديجة أرسلت تطلبني) وأدركت العمة لما تعرف من عزته أنه
 لن يسعى الى الأمر بنفسه فجمعت عزها وقصدت في العمي بيت خديجة .
 (١) تحفل المصادر بذكر اللقاء الاول الذي خرج منه محمد مقتبطاً ، فقد
 بذلت له كمبراً من بشرها وترحابها وقفل الى عمه فرحاً بأنه يسعى في التعميق
 من عصره ، وفاجأه بقوله (اشر برزق حاجل سانه الله اليك) .

هم صاحب اليمن او قل أذبالها (١) .. يقص عليها أحداث مفتونة ..
من يسمعه يقول : مفتون لم يمسك نفسه في الفتنة ، بينما هو يحس
بأنه مكفوف لم يكن له حظ البيان .

و « ميسرة » لا ينقطع ، فهو مشدود الى أحاسيس مستحوذة :
لو أنك معنا فيما كنا فضرب هنا وهناك من البعيد البعيد ، رأيت
الناس كل الناس وليس لهم من إنسانيتهم إلا حظ الهاجرة او حظ
من هو أبداً في الضح من لآخها الحرور .. ووحده كان له حظ
المظلل بالسحابة فطبيعته أفياء تنفخ فيها مثل غمامة بالندي (٢) .

(١) الاكترون على ان النبي سافر لها مرتين : واحدة الى الشام ، واخرى
الى سوق حباة بارض اليمن بينه وبين مكة ست ليال .. وعند البعض سافر
لها أيضاً الى جرش من اليمن فتكون سفراته لها ثلاثاً ، وعند بعض آخر غير
ذلك واذا جمعت الروايات المختلفة لزم ان يكون سافر لها خمس سفرات ، أربع
منها الى اليمن وواحدة الى الشام وليس ما يشهد لهذا .

(٢) في المصادر ولا أستثني مصدراً ، ذكر الخوارق شهدها ميسرة غلام
خديجة وشهدها الركب ونقلها كلها اليها .. وكان من أهمها « السحابة التي تظله
في الهاجرة وشدة الحر » واعتبرها الرواة من ارهاصات النبوة ، ولا بدع
في انها حق وليس من كبير أمر في المنطق ان تكون وقعت وان شهدها
كذلك .. ولكنني أحب ان أهمها مهماً مجازياً وهو أكبر في مقياس القيمة ،
مشاق الخوارق ليسو الا بسطاء تستويهم عيونهم باكثر من عقولهم وقلوبهم ،
هم يعيشون عيش الخاصة وليس عيش المعنى ، وانهم في مساق الضرورة وقلما =

وبيننا وبينه ، إن نحسب الصحراء فأنه الواحة .. وبوسع وبوسع
ليفيض ويفيض .. وتنبعث هي آونة وآونة ، في لذة بين دهن
وتأ كيد :

أكل ذلك هو ١٩ .. ثم لا تنتظر رده ، إنها تسمع في اصمافها
الجواب كأنه نداء البعيد .. وهو يتساقط إليها من نحو وعلى نحو ،
كأنما لها به عهد .

أتكون عاشقه ؟ . لا تدري ، فكل ما تؤكد هو أنها تعرف
ملامح هذا النداء ، وانصداه المضمخ بالشذى ، في جوارها غير غريب .

= استشرعوا ما فوقها . نعم انا أفهم الروية ذلك الفهم لاسيما والجملة العربية تحفظ
(فلان اطلانه السحابة بات في خفض وسعة) وهي في المادة مثلها في المعنى دون
فرق الا فرق الاعتبار .

امرأة تَحترُّ الطيب

نداء يوشوش في أذنيها ، ولكنه حلو الجرس عذب

الرين . تصفي اليه فتلقها نشوة ، وتنصرف عنه فيعروها ضيق .

نداء أفافت عليه ولا تدري مصدره ، إلا أنه من اعماق بعيدة ..

غاية في البعد تحسبها ، وإن لم تكن في غير اطار الذات .

وشأن الأبعاد من الذات شأن الأبعاد من اللانهاية ، ليست

تثبت هناك إلا في قدر حسوة خاطر واهم . ففي كيان الذات وحدة

ازلية تحيل اليها الأشياء ، فلا حاضر ولا مستقبل ، ولا قرب ولا

بعد . بل لحظة أبدية تطرح الحدود وهي مشتقة من كبد الزوال ،

وفي كونها تذوب مصطلحات عقلنا النسبي وهي تباورات ظلال خادعة .

نداء على انه يأتيها من البعيد ويهب عليها من المنتظر ، هي الآن

لعمري ، وتنكر على الماضي انها عاشت غيره وتنكر ذلك على المستقبل

بانكارها الصارخ نفسه .

أما في ظل لحظة ليست نحس معها بغير كليتها ، فهي أمس وغد
وهي قبل وبعد ، إن كان لأي منها في مثل ذلك الجو حساب أو خيال
حساب .

لقد أصبحت فجأة على أبي هالة ، على عتيق ابن عائذ ، على ما هي
فيه من يومها ، وايس كلاً ، الا نبضة حنين اختلجت في خاطر حب
عميق ، لا تختلف اختلافها الا حين تميل فيمطلق بها عنصر الزمن الذي
يمررها بعلاماته البلهاء .

نبضة تجتمع مستدقة لتقف عند شخص ، أي عند علامة عند
اسم زماني ، وتنتشر متسعة لتعانق روح الكون في شمول وعمق . .
أو قل في سرمدية يغص باستيعابها حلق الكلمة ، وينقطع في امتدادها
نفس التعبير .

فما نحس هي به اليوم ، من نبضة حنين يتوهج ، لم يكن غريباً
عنها ، وكان لها به عهد وأي عهد ، عذوبة ونضارة . . وما أضحت
على جديد فيما تشمر ، بل لتقطع بأنها لم تمن اللحظة الاولى بعد .
فغيرها فقط ، يرى بوعيه الزماني ، أنها إزاء علامة زمنية
جديدة ، إزاء شخص لم يكن لها من قبل . . أما هي نفسها فقد
كانت عندما رأيت من نبضة حنين لما تنزل ، وان مرت بها على ألوان

أنت تبصرها وتحصيها . . كالشعاع في مقلة الشمس ساعة تعطيه ، من يقول إنها تراه غير بياض مضى ، وإنه فيها غير وحدة نور ؟ ، وإن أنت ذهبت نحلله في عملية « الطيف الشمسي » الى ألوان وترده الى عدد اهتزازات .

وكان فرق ما بيننا وبين السيدة خديجة في هذا : كالتفريق بين من ينظر من داخل الى ما وراء ، ومن ينظر من خارج الى ما وراء . نداه هتف به كيائها وهو يتردد بين كل ذرة وذرة ، لينمقد تراجع تراجع ، تظل أسر وتظل اغرى داعية . . كنغمة تتردد ان تحقق لحنا او ان تتحقق في لحن ، فدارت على طبقات ومنازل ، وفترة السكون لا تكون انقطاعاً بل استمرار لأداء ، ساعية تنشد اوجها بحرارة استكمال الوجود ، بحرارة البقاء ضد الفناء ، بحرارة الحياة ضد الموت . . قوت النغمة على الحقيقة انما هو في انقطاعها ، اي في ان لا تتحقق هذا التحقق .

والسيدة خديجة تستجيب بارادة ودون ارادة ، الى وشوشات ذلك النداء ، بكيبتها ، بكل خالجة تدور وتتردد في حناياها . . صنو تلك النغمة التي انسجمت انسجامها في لحن ما كان لها ان تقع دونه ، والا خسرت سرها من الوجود .

مع بكور صباح ماتم ، او هكذا أحست به ، في سر نسيمه ، في
تألق شروقه ، في تناغي اطياره ، في اضوائه وظلاله . . استيقظت
على لحنها ، وكأنه تردد لسان في مجتمعات الكون ، ما اتسع الكون .
على انه ما الكون ؟ ما لبائته ؟ إن لم يكن تراجع اصداه نحن
نبشها ونطلقها . . .

وما يدرينا ان يكون من زعم ، صادقاً حين حدث : بأن حبات
السنابل في صدر الطبيعة ، ليست الا متبلورات حاجة خالطنا حسها ،
واستوت خلقاً يوم استوت ضرورة . . وصداقاً حين فسر : بأننا
فضل من محيط ، اذا خفقت فينا « في الكل » رغبة ، خفقت وعي هي
في سائر ، لثمة قد خلقاً وفي معناه استجابة .

مثلاً نحن ، ويتصل فينا من خفق المحيط ، من كل خفق المحيط ،
ما ينعقد عندنا وعياً ، او تكوراً جديداً ، وفي معناه استجابة أيضاً .
وبذلك يتلاقى الكل الواحد : وجه في وجه ، ونداء في نداء . .
وينعطف الروح المطاق نحواً على نحو .

وما يقال لك من تطور وأساليب تطور ، او ما يقال لك من حيورة
تمدفع وتتجدد ، فليس الا العبارة القاصرة البلاء التي لا تعي نفسها ،
ثم لا تفسر كونها في هذه السنة لم اتفق ؟ وموقعها من ذلك
المطاف لم كان ؟ .

وأنت اذا اكتمت التطور حقاً ، تجد سره في هذا التصادي (١)
وعبارته في ذلك التساوق ، المنعطف رجماً على رجع ، وغاية على غاية ،
وفعلاً على فعل ...

نعم ، لقد استيقظت غداة هذا المبكور ، على لحنها وكأنما أفعم
به قلب السكون الكبير ، ففاض على سيمائه بشراً وفاض نضارة ...
حتى لحسبته جديداً في كل شيء ، جديداً في شمسهِ ، في لآلئ شمسهِ ،
جديداً في أرضهِ في سمائه ... حتى اتسكاه جباله على صدر الأفق ،
تراها جديدة ونحسها لمعنى لم يكن لها من قبل ...

ومرت مولاتها (٢) « نقيسة بنت منية » تسمى في بعض

(١) من أغنى كلمات العربية هذه الكلمة ، فهي تفيد معنى ثنائياً أو بالآخرى
يمكن ان تستعمل لذلك من تراجع الاصدااء والتدبير بوعي ، واستخدمناها
هنا بمعنى تراجع الصدى الواعي اي الفاعل .

(٢) في الروايات اختلاف أ كانت نقيسة هذه مولاتها أم صديقتها ، ويكاد
يقع الاتفاق بين مكتاب التأريخ والسير وتراجع الصحابة والتراجم العامة على
أنها صديقتها فهي اخت يعلى بن منية ووقع عند الطبري ما يفيد انها مولاتها
ج ٢ ص ١٩٧ وملنا الى اعتماد المرجوح لانه أدخل في منهج السبك ، مثلما اعتمدنا
الرواية المرجوحة ايضاً في الفصل السابق فيمن كان الوسيط بين محمد وبينها في
العلاقة التجارية وأثبتنا هناك انها كانت عمته وهو قول في أقوال بعضها انه عمه
أبو طالب وبعضها انه نقل اليها الحوار بينه وبين عمه فبعثت تطلبه الى أقوال
عديدة .

شأنها ، وصريح بحدیجة فی ضرورها خاطر اتصل بخواطر ، تتالت سریعة سریعة . . ودون تلبث حزمت امرها حزم الجد ، فإذا هی تستوقف مولاتها - وكانت فی محل ثقها - وتدعوها الی مجلسها من الأریكة المطعمة بالعاج ، وإذا هی تطارحها حديثاً ذا تفاریق اتصل من شیء فی الدار الی شیء فی الاق .

ومولاتها - علی انها تصفی حیناً وتأخذ بأطراف الحديث حیناً - بدت علیها مسحة التواء (١) فی اعطاء اذنها لها ، فبهی رقیقة لتكشف وهی كثيفة لترق ، آونة وآنة ، فی تدارك وتتابع مع مسرى الحديث وكان طویلاً .

فقد لفتها غلالة من شرود التقدير . . ما عهدتها من قبل نخوض مثل هذا الخوض ، كما لم تعهد لها هذه النظرة المنبسطة عند الاق ، العالقة وكأنها بشیء فیه .

إنها مغتبطة كما لم تعرف منها ، مغتبطة كأمل متفائل . . ثم هی لا تنطق بلسان من ورائه قصد معین بل من ورائه قلب تزهزه كروض ، قلب كالذي تعرف منه عذارى تنزافن (٢) بهن انفاس الشباب .

(١) الالتواء اتعال من لمی وبغید تغیر اللون وأردنا منه هنا تغیر نوع الاصفاء .

(٢) من ثلاثی زفن حركات كالرقص .

وللعذارى في طلة البراعم وعمر الأملود ، قلب انمقد من بهجات
فيها من كل لون ، يدور على انحاءه مثل كرة الثلج . . كلما مضت اكثر
فأكثر كبرت اكثر فأكثر ، حتى اذا استقرت استقرارها ، تذوب
على نفسها بكل ما انعقد فيها وتراكب عليها : في دموع حيناً او في
غيرها حيناً ، وتذوب ايضاً بمأساة في نهم سواها الى الابد .

هكذا كانت نفيسة في نجوى بينها وبين نفسها : أترى خديجة
- وهي التي ذاب قلبها المنعقد انعقاد الروض في دموع - عادت
فلملمته بأعجوبة لينعقد انعقاده مرة أخرى . . يصفق للفراش ، ويسفح
العبير بخوراً في صلاة البلابل .

وما ادرانا ، اليس في قلب الشتاء العابس قلب الربيع الباسم . .
ولكن اية أعجوبة هي التي صنعتها .

لعلها رأت أبا هالة ، وأعني لعلها أحست من جديد بنفس شبابها
الذي كتمته بدخية بقسوة . . نعم لعلها رآته في غفوة كانت
انتباهة ذكرى ، أما أكدت في حديثها منذ هنية انها رأت هناك
عند الافق البعيد أبا هالة ، في ومضة لتتحسر عن ومضة رأت فيها
عتيق بن عائذ ، لتتحسر بدورها عما هو أبهى ، بيد انها لم تتحققه
كما لو قام دونها جدار من وهج اضواء .

تؤكد هي انها رأت ذلك رأي الحس ، ولعلها الآن تحيلنا - نحن
الواعين وعي الزمن - حين لا نرى ما رأت ، الى كوننا في غفوة
بليدة وكابوس نوم ثقيل .

أ يكون هكذا قلب الانسان اكبر جبروتا من الزمن ، وها هي
بضربة تمحوه .. ا يكون أثبت من الكون هذا الجامد واعمق حقيقة ،
وها هي لا ترى فيه الا انه وجه امرأة حلم يرف في خاطرها ..
ا يكون اخلد من المعوفة ، من وعي معرفتنا ، وها هي تنهار بأضخم
اقدارها وقيمها كضمة من اشباح الليل في قبضة الفجر .

وأفاقت نفيسة من نجواها على صوت خديجة يهتف بها :
أ رأيت محمداً ؟ أ عرفتته .

نعم رأيت ههنا في الدار ، ورأيت خارجها ، وعرفت منه قدر ما
يعرف الناس منه ويدور في احاديثهم .. مالت خديجة تعيد قولها في
صوت خفيض لا يخلو من اشفاق : وعرفت منه قدر ما يعرف الناس
منه ويدور في احاديثهم ، وماذا يعرف الناس ، هل يعرفون الا معرفة
الحاسة التي لا تعلق الا بالظلال .

بـ ماذا تلم العين ، نعم بأي شيء ، اللهم سوى خطوط واضحة
تتواقع كيفما اتفق على المفارق .. وماذا تلتقط الأذن ، غير بواد محبوب
بها صوت مصنوع .

انها لم تعرف الا الثوب ، وما احراه ان يحول خلقاً لاشئ منه
ولا شئ فيه . . اما حقيقة - وليست بالحاسة الجامدة تدرك -
فليت للناس غير حواسهم ، اوليت قلوبهم في طريق حواسهم ، اذن
لوعوا منها ما اعي .

وجهرت قليلاً : ليتك كنت تعرفين . . وشخصت ببصرها قليلاً
في غير شئ ، او في شئ برأود خاطرها ، ثم قالت :
كيف بك اذا ندبتك لأمر .

انا . . تعنين ، حسبي - كمهدك بي - ان اظل في محل الثقة .

* * *

وكان ان (ارساتها دسيساً الى محمد تستدبته نبأه ميله) ، وكان
ان غشيت داره تعاطيه حديثاً ظل في الترحيب وما هو الى الترحيب
مما ليس يتحرك به قصد معين ، لتثقل به نقلة صناعاً . . فهي تذكر
شبابه وتذكر حقوق هذا الشباب عليه وما يطالبه به ، ويفض محمد
على الطرف (١) وتفرض هي على الأمل بالفوز ، لتفاجئه بقولها :
ما يمنعك ان تزوج ؟ . . وحين اشار الى قلة المال استدركت :

(١) تركيب خارج مخرج الكناية كأنها ليفيد جمع النفس كلها في طرف
غضبيض ، وهو شئ غير قولهم غض الطرف أو غض منه أي استعجب .

فإن أنت كفيته ، ودعيت الى المال والجمال والكمال والكفاة . .
وحين انبعت يسأل :

ومن تلك ؟ . . اجابت وقلبها على جناحي تخوف :
انها خديجة .

أبنت خويلد تعنين ؟ .. قلها بتعجب مشوب باعجاب ، وعمرت به
اطراقة قطعها بقوله :

وكيف لي بذلك ؟ .. فداخلها اطمئنان لا حد له ، انبرت نجيب
معه في تأكيد وثقة :

ما عليك .. بلى انا افعل .. ويصمت محمد صمتاً كأنه ينطق
بالرضا ، وتصمت هي صمتاً كأنه ينطق بالغبطة .

وتنقلب الى خديجة راجعة ، تحمل لها السعادة بيد والتمني المخلص
بيد .. ونجزل السيدة كرامتها (لقد كنت والله يا ابنة منية ،
ميمونة النقيبة) .

وما تلبثت خديجة ، فهي ترسلها كرة اخرى تعين موعد المقد
وتلتزمه لزيارتها ، فيجيب الى هذا وهذا وينهمكان في معيدات
العرس .. او الفرحة الكبرى في حسبها المحتاج بحلم ، طالما غنته اغاني
الفراش في سمع الزهر ، وهو يمد فوقها قباب العبير .

وكانت في البهجة تملقاه كلما هبط عليها زائراً ، وكانت في الوداع كل مرة تعزم عليه ان لا يستأنى بأخرى ، فالحظة دونه دهر طويل . وينطلق مرة غادياً اليها ، ويخامر عمه أبا طالب خاطر ليس في الربة بل في التوقي ، فيبعث من ورائه « نبعة » مولاته لترجع اليه بما أفعم قلبه سروراً .

فقد شهدت « الآذريون » (١) في محراب الشمس ، طرف في طرف ليس يسقط ، ووجه في وجه ليس ينأى ، انه يمزج بخور قلبه بحبة شمع .

وما على البخور أن يلاقي النور ؟ ، وهما ما التقيا قلباً وقلباً ، الا ارتسم من هبوة أنفاسهما معبد . . (لقد رأت خديجة تميل فتأخذ يد محمد تسند بها قلبها ، لتبته في نشوة ليس فيها من معنى الارض : بأبي أنت وامي ، والله ما أفعل هذا لشيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت المنتظر الذي سيبعث . . فان تكنه فأعرف حق ومنزلي ، وأدع الآله الذي سيدعك لي .

ويرد محمد : والله لئن كنته ، فلقد اصطنعت عندي ما لا اضيعه

(١) نبات أصفر وهو في رأي بعض اللغويين ما يسمى اليوم بزهرة عباد الشمس .

أبدآ ، وان يكنه غيري فان الآله الذي تصنعين هذا لاجله لا يضيعك
أبدآ) (١) .

* * *

ولم يفصل كبير وقت ، حين أفاق الناس على حفل زاهر زاه . .
أشهدت موكب الربيع في قبلة الفجر ؟ ، فانه صنوه .

(أقبل القوم من بني هاشم يوم الأملاك « العقد » ، وفيهم
كريم فتيانهم ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبدالله ، يحف به عمه
أبو طالب وحمة . فنزلوا من بني عمهم أكرم منزل وأسناه ، حيث
قابلهم واحتفى بهم عمرو بن أسد (٢) عم خديجة . وما أن اكتمل عقد
اجتماعهم حتى قام أبو طالب إمام قرش يومذاك وسيدها ، فقال :
« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ،

(١) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٠ وغيرها مثل السمع الطمين في
مناقب امهات المؤمنين المحب الطبري ، ومن المصادر المتأخرة سيرة زيني
وحلان وكتاب شهرات النساء في العالم الاسلامي للاميرة قدرية حسين ج ١ ص
١٨ - ٢٠ .

(٢) اختلف في الزوج لها والصحيح انه عمها المذكور لأن أباهما
مات قبل الفجار ، وفي السيرة الحلبية رواية منكورة وأوردتها هي على انها
كذلك وتدور على ان خديجة أسكرت أباهما حتى ضمنت موافقته راجع السيرة
المذكورة ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

وضئضى معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمة ،
وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس . . ثم ان
ابن أخي هذا ، محمد بن عبدالله ، لا يوزن به رجل الا رجح به
شرفاً ونبلأً وفضلاً وعقلاً . وان كان في المال قل ، فان المال ظل
زائل ، وأسر حائل ، وطارية مسترجعة .

وهو - والله بمد - له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد رغب اليكم
رغبة في كريمتكم خديجة ، وقد بذل من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا
عشرة اوقية ونشأ (١) .

فقام على الأثر ابن عمها « ورقة » فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت ، فنحن
سادة العرب وقادتها ، وانتم اهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ولا
يرد أحد من الناس نفركم وشرفكم . . فاشهدوا علي معاشر قريش اني
قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله . . وكان ورقة
في موقفه هذا ينطق بلسان عمرو بن أسد عم خديجة ، فالتفت
ابو طالب وقال :

يا ورقة ادع عمها يشاركك المقد . . فنهض عمها وقال :

(١) النش عشرون درهماً وهو نصف الاوقية ، وبروي ان أبا طالب
أصدقها عشرين بكرة .

اشهدوا علي يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله
خديجة بنت خويلد (١) . . .

وكان محمد إزاءها أثناء العقد ، وما انتهوا حتى مالت تهمس في
أذنه ان ينمحر ، فطعم القوم ما شاءوا (٢) .

* * *

وهكذا استوى بعد انتظار شحيح ، لتلك النعمة الشاردة ، ان
تلتصم انسجامها في لحنها العبقري ، وقد انهمر من أنامل القدر
انهار جدائل الشمس توشح بها وجه الشروق .

هـ- إذا اللحن الذي سكب الغيب فيه عمقه ، وعبارة أسرارهِ ،
وكانت أذن الحياة ظمأى يثقلها الفراغ وتعمن في نواحيها الوحشة .

(١) يروى انه قال أيضاً وقد جهزتها باربعائة منقال من الذهب ، و يروى
ان ورقة الذي قالها وانهى بها خطبته .

(٢) كان تزويج محمد بخديجة بعد مجيئه من الشام بشهرين وقيل بخمسة
عشر يوماً والاول أصبح ، وكان عمره اذ ذاك خمساً وعشرين سنة على ما هو
الصحيح الذي عليه الجمهور ، وفي قول كان عمره خمساً وعشرين سنة وشهرين
وعشرة أيام . . أما عمر خديجة فاختلاف فيه والصحيح انها كانت في الاربعين ،
وقيل بنت خمس وأربعين ، وقيل خمس وثلاثين ، وقيل ثلاثين ، وقيل ثمان
وعشرين ، وقيل خمس وعشرين راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٠ .

والسيدة خديجة باتت تتقلب تقلب قلب الحسى المقعم ، في أراجيح
هذا الاحن . . فهي تمشى أحلامها عيش القطوف الدانية ، لا عيش
عمرها في خاطرة النواة .

لبثت من دهرها أمداً ، وهي مثل شجرة الأوراق تمد أحلام
قلبها أنباءً في مرآة الشمس ، فتجلببها اجتلاء الفسوة ساعة تلونها آية
النهار بمطارف الشعاع .

لبثت كذلك شجرة أفياء ، أي شجرة أحلام ملونة ، تغنى غنى
قلب الشعر بالأمانى . . لتصحو وهي مثل شجرة الثمر ، متبلور بسمات
أمانها حبات قلوب .

لقد أصابت من الشعاع أكثر من اللون ، وأصابت من الفيء أكثر
من الظل الندي ، وهي لا تفناً تمزج بينهما مزج الحياة . . فإذا الشعاع
طعم وفوح ، وإذا الفيء الندي طعم وفوح . . خصائص موصولة .
وإذا الحلم الطائر، برينا كيف ينمقد انمقاده في واقع هو يحلم
أيضاً . . معارج موصولة .

وخديجة في يومها . . انما عرجت الى محمد عروج أحلامها ،
فأترد فيها ظمأ . أما الى محمد عروج أحلامه ، فانه يغاديرها بظماً
جديد . . .

عرجت الى محمد عروج أحلامها ، فإذا دنياها محمولة على هواجس
الشفق ، في موضع ، لحن المساء فيه هو لحن النهار . . والشفق - لو
تعلم - لون حقيقة مطلقة ، فهو ليس الليل ولكن فيه كل روحه ،
وهو ليس النهار ولكن فيه كل روحه ، اعتنقا اعتناق سرمدية ،
دون منحدر ضفتها بعيداً بنبت الزمن .

باتت من حياة قربه في متعات ، تتراخى الى حسنها شآبيب
شآبيب ، فهي مغتبطة وهي هائثة ، وهي اشياء كثيرة من هذا . .
إنها سعيدة .

والسعادة يد ساحر ، تمس اليبس فيحول روضاً ، وتفتح اغلاق
جفون الصخر عن أحداق مكحلة بالنور . . وما وعى الصخر على
نفسه ، الا انه هــ هذه الجفون ، مغلقة لا حد لاغلاقها صفيقة لا حد
لصفاقتها .

وقيل - وأنا أصدق - إن العربي كان ملهماً يوم دعاها حديقة ،
وأعني يوم تصور فيها باقة أحداق ، تنعكس بارتسامات مما أجن
قلب الأرض .

* * *

بقربه كانت تمر بالأعوام أو تمر بها الأعوام ، غير مستتبعة منها

إلا أنها ، أفلايق بين رشفة ورشفة ، لكأس لم تضعه من يدها بعد ،
 بل ما كان لها أن تضعه فهي مقبلة عليه إقبال الهيم ، بالجارية
 والحاجة باللب والفؤاد ، وما يتصل باللب وما يتصل بالفؤاد .
 تقبل عليه بمأطفتين أحدهما تكمل على الأخرى ، فهو للحب في
 عينها امرأة ، وهو للحب في عينها أم ، ولا تسكن عندها واحدة
 إلا لتتحرك بأخرى . . وانجبت (١) له ، فهو لهما أيضاً في معنى
 جديد .

نعم هي تبذل له الحب ألواناً وتفرش به أرضه وسماؤه ، بيد أنها
 ما اعترضته به دون أحلامه ، وما أخذت عليه دربه ، لكنها تعرف
 ابن يلهي به ذلك الدرب . . بل صنعت من حبها مخاريف ، تتنصر
 بين يديه بمقعة الطريق ، وهي توغل في الصمود وتعمق في اتجاه البعيد ،
 تحبه وليس الحب « الترجمي » (٢) - شأن ما تعهد المرأة منه -

(١) ولدت لحمد ابنائه كلهم إلا إبراهيم الذي كان من مارية القبطية وم
 على ترتيب السن القاسم والطيب والطاهر وأكبر بناته رقية ثم زينب ثم
 أم كلثوم ففاطمة وكان أدركن الإسلام وهاجرن . راجع ابن هشام ج ١ ص
 . ١٢١

(٢) زهرة النرجس ترمز في الأسطورة الإغريقية إلى نرسيس الذي كان
 يعشق نفسه عشقاً لا يرى معه في أي شيء إلا نفسه .

وفيه الحب إشباع لكبرياء الحس بالوجود ، فهو انانية حلى بذاتها ،
وهو منهم أسر يعيش بمثله . . وانما احبته حب القطرة للنواة ، تسعى
اليها بلذة التضحية تفجيراً لاسرار طبيعة مخزونة ، في تفجيرها قصد
الى تكبير الوجود .

وكان لها بهذا الحب الاصفى ، به وحده ، ان تخرج الى محمد
شيئاً بعد شيء عروج احلامه ، فهي ترى من حقيقته ما لم تكن
تمهد ، وتبصر ما تحسبه جديداً غريباً ، وتندفع اندفاعها الى ابن
عمها « ورقة » تحدته وما تكفكف الحديث ، وتظن وتظل على
الاطناب في محاولة الافصاح ولكنها لا تطيقه ، ويرى ابن عمها ذلك
منها فيبتسم لها ابتسامته كمن يعذرها على انها لم تفصح ، او بالاحرى
على انها نالت به وانقطعت دونه وان حاولت . وإن جهدت فرط الجهد ،
وتتم كمن هو في نجوى مع نفسه :

[قد كنت عرفت انه كائن لهذه الامة نبي ينتظر ، هذا زمانه] ،
وعساه ان يكونه ، وما بي اتمنى انه هو ، هو نفسه ، وهذه علامته (١)
وخديجة لم تكن تطلب مزيد معرفته فقد احسسته بحس القلب ،
وما انفك يتزايدها هذا الحس مع الأيام ويكبر على القرب . . ولكن

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٠ .

سر ها ان تجد من يشاركها هذا الاطمئنان ، ويذهب فيه مذهبا .
ونحن في الحب والبغض ، في العاطفة والفكر ، نغتنب بالموافق
لا ليزيدنا ثقة بمواطننا وأفكارنا ، بل لأننا نأمن بمن يشاركنا
ويفكر معنا ، او - وهو أصح - بمن يشعرنا بتأكيد الشخصية في
مظهر الفكر او في مظهر العاطفة ، اي يشعرنا بالتفوق . . فأنت قد
تطبق من محدثك إنكاره اي شيء عليك ، خلا معطيات الفكر
والعاطفة لانها عنصر الشخصية او ان شئت فقل ، لانها ابلغ
عناصرها واكبر مقوماتها .

وخديجة استعذبت من ابن عمها ان يشعر معها هذا الشعور كله ،
فكانت لا تفتأ تسعى اليه كما سقطت على جديد او خيل اليها ذلك ،
فكثيراً ما كانت تنقل اليه وتبته ما سبق لها انها نقلته اليه وبثته في
اذنه .

وورقة يعجبه ذلك منها ، ويعجبه اكثر واكثر هذا القلب عندها
الشاحص دوماً الى فوق ، تتكشف سرّاً طالما اعياء امره وتنشد غاية
طالما انقطع بمعارفه دونها ، وتتمتع بيقين اعوزه بعضه .

لقد طفق يشعر في حماستها بجديد لم يكن يخالجه ، وافاد من
حرارة ايمانها حرارة . . فهو ما انقطعت يستزيرها ، وما ابطأت

يستعجلها ، وما كفكت يستزيدها . انه بات يحتاجها ، يحتاج حديث قلبها الذي اناله ما عجزت عنه معارفه .

وفي خلوته كثيراً ما صر به خاطر كان يبسم معه : هي تسترشدني في ظنهما ، وانا الذي رشدت بهما . . اترى ، ما يعوز العطاش ليس اكثر من قلب يجب . . .

واستمرت به واستمر بها ، فهو يرتب ارتقاها ويعيش في مثل لفة املاها ، وكانت أرتة إياه قريباً حتى لسكأنه تحت سدائل ليلة مع الفجر . . ولكنه تراخي ، وما كان له ذلك اما اكدت قربه ؟ . . وترادف في قلبه إلحاح وتباغم في نفسه نداء ، وما استمسك فهو يهتف :

لججت وكنت في الذكرى لجوجاً	لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف	لقد طال انتظاري يا خديجا
يبطن المكثين على رجائي	حديثك ، ان أرى منه خروجا
بأن محمداً سيسود فينا	ويخضم من يكون له حبيبجا
ويظهر في البلاد ضياء نور	يقيم به البرية ان تموجا
فيلقى من يجانبه خساراً	ويلقى من يجاربه فلوجا
فياليتي اذا ما كان ذاك	شهدت وكنت اكثرهم ولوجا

ولوجا في الذي كرهت قریش ولو عجت بمكثها عجيجا
 فان يبقوا وأبق ، تكن امور يضج المعتون لها ضجيجا
 وان أهلك ، فكل فتى سيلقى من الأقدار متلعة خروجا (١)
 بهذه المرارة كلها التي نحس طعمها - وهو العلقم - في نشيده
 وكان كما ترى تفجر ضلوع عن زفرة شدا ما احتبسها ، هو يناجيا ،
 يناجي الأثر الذي تركته حيا في نفسه .

[لقد طال انتظاري يا خديجا] ، هتاف بذل فيه قلبه بذل لسان
 النار في موقد القرايين ، حسبه منه انه الشعلة في طريق الآتي من
 هناك .. من لدن الله .

* * *

وخديجة - على انها تحميه بالجفون ، وتفرش طريقه بنسج من
 محبك أهدابها ، وتحتوي ومضه اللحظ التي تخلو منه - لا تقف دون
 رغبه ، فهي تشيعه دامعة باسمه ، في أمنية وامنية وبين عاطفة وعاطفة ..
 وكان اخذ درب « حراء » حيث المزالق الفاعرة يتسلقها تسلق الجاهد ،
 ويمر بينها مرور الطيف المسرع ، ويندفع نحو الغار اندفاع الرضيع
 الى ثدي .. وما هو في التشبيه ، لقد كان له ذلك الغار ثديا حقا ،

(١) راجع سيدة ابن هشام ج ١ ص ١٢١ .

أما ولد ولادة ثانية ، وها هو هنا يستنزل اللبان .

انكشف عن الوجود الفضاء ، ليحيى وجوده المفعم ، الذي هو
مهبط الاسرار ومجلى روح الله .

والعزلة كانت وحدها ودائماً ، للاصفياه ، المعراج الى الحقيقة
الكبرى . . . وحرأ ذلك المغار المبهم الذي يضيق حتى لا يتسع لشخص
المتأمل المتأله ، كان ينفرج به وينفرج حتى ليأتي الكون كله في جانب
صغير منه .

انه هنا بالروح يحيى ، وانت بالروح مصنع معجزات ومبـدع
آيات . . . وانه بها يرى ويسمع ، فلم تعد الحاسة تقف عند الحس ،
بل تحترق اليها سبيل ضميرها المحجب .

ومن هنا جاءت الرواية (١) ، بأنه كان يسمع ترنيمة صلاة ،
كأنما يتردد بها لسان في كل ما يقع عليه الطرف وما لا يقع ، حتى
الحصى كان يهمس همسه كما لو ان الكون كله معبد . . . بلى ، انه
« معبد الرؤية » لذوي البصائر .

ابتدأ هذه العزلة شهراً يقضيه في الاستجماء ويختتمه في البر (٢) ،

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٠ وسواها مما هو كثير كثير .

(٢) راجع المصدر المذكور فقد جاء فيه « كانت رسول الله يجاور شهر

رمضان من كل سنة في حرأ ويطعم من جاء من المساكين وهبط عليه » ص ١٥٠ .

وتقضي خديجة في السعي اليه بحاجته ، لتزيد به وتزيد حتى
لأضحت الخلوة له جلوة ، وحتى لبات يحس في الانقطاع حقيقة
الاتصال .

وانه اني نشوة الاستجلاء التي تحسبها غفوة ، كانت بقطته ،
بقطة التجلي التي ندعوها نبوة .

لحظة أبدية مشرقة ، طويتها يوماً في صورة ليست الى الشعر ،
وانما هي الى الاشارة ، ولا أجاوز مقداري فأقول الى التعبير :

هناك في الصحراء - حيث صمت مصفية ، جوانب الكون الكبير
وخلجة الحياة حيث هدأت واعية ، في لهفة وفي حبور -
تنظمت خاشعة مكبرة مواكب الأجيال ، تزجها المصور
وقد جثا الوجود برنو شاخصاً لجبل يبدو كما يبدو الوقور
فقد أطل من ذراه ، هبة الأدهار ، كالمشكاة في الأفق المنير
أطل من غار حراء رانياً كما رنت شمس على رآد الظهور
مقلباً ناظره ، منفصلاً عن جفنه ، هباءة الدهر الدهير
وها ، رويداً راح يخطو هابطاً وحوله التاريخ ، من هوأ طير
منحدرآ في هالة مشعة كهالة البدور في اليوم المطير
ولأترك الآن الحديث للرواية ، فلها أحب وأغنى ، وأخصب وأندى :

[أول ما بدئ به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة ،
فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . ثم حُبب اليه
الحلأه وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعمد الليالي ذوات
العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة
فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال :
اقرأ .. قال : ما أنا بقارئ .. قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني
الجهد ثم أرسلني ، فقال :

اقرأ .. قال : ما أنا بقارئ .. قال : فأخذني فغطني الثانية حتى
بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال :
اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارئ .. فأخذني فغطني الثالثة ثم
أرسلني ، فقال :

اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خالق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم .. فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت
خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .. فقال
لخديجة ، واخبرها الخبر :

لقد خشيت على نفسي .. فقالت خديجة :
كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،

وتكسب المدموم (١) ، وتقوي الضيف ، وتعين على نوائب الحق ..
 فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، وكان
 امرأاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، وكان
 شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن
 اخيك .. فقال : يا ابن أخي ماذا ترى . فأخبره رسول الله خبر
 ما رأى ، فقال له ورقة :

هذا الناموس الذي نزل الله على موسى (٢) ، يا ليتني فيها
 جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك .. فقال رسول الله :
 أو مخرجي هم .. قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به
 إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ (٣) .

(١) في غير رواية البخاري المدموم وهو الأصح .
 (٢) في غير رواية البخاري « الذي نزل الله على عيسى » مرة ومرة
 « الذي نزل الله على موسى وعيسى » راجع تحقيق ذلك في كتاب عمدة القاري
 شرح صحيح البخاري للعيني ج ١ ص ٤٠ - ٥٠ .
 (٣) راجع صحيح البخاري ج ١ ص ٣ .

يوم القدر . الحبيب

قدوس .. قدوس .. هتف ورقة ، جامعا في هتافه

كل نفسه ، كمن بات يتشهى على طرف أمنية ، ليصبحو ، وسر قلب
الأمنية بين يديه .

لم يطق إلا أن يرتف هذا الهتاف ، وخديجة في مجلس منه
كعادتها .. تقص هي عليه ما رأى محمد ، ويستمع هو استماع البشرى
ويصغي إصغاء الظفر .. إنه اليوم سعيد ، يستخفه عبق ليس من
ضمير الدنيا .. ليس مثله مما تخمر ضلوع الأرض ، وتلشق عنه مواهب
التراب .

لقد رأى العنقود كيف ذاب به الشوق ليحول رحيقا ، يعطي
القلب نشوة ساعة يفتح الروح على مفالق الخلد .

كانت تنصرف جهدها عن التفاصيل شأن من يهتم بالحادث في
الخير ، وكان يرددها جهدها إليها شأن من يهتم بالمعرفة تعليلا واستنتاجا

ومقابلة ومقارنة . . إنه يريد بها على أن تفضي اليه بكل ما تعرف ،
باسطاً لها أذنيه جميعاً واحدة لوعي عقله وواحدة لاطمئنان قلبه ،
أو لعله بسط لها عقله وقلبه ساعة بسط لها سمعه . . فما وقع اليه حرف
الا رأى ما ورائه ، وليس رؤية الدلالة بل رؤية التجسد .

وكان لهذا الشيخ مقلة ، كأنما جاء بها الغيب على مقداره ، فما
يطرف لها جفن على جفن ، وما ينحسر فيها لحظ عن لحظ . . الا كما
يطرف دفق شمع على دفق شمع ليس تحتها ما يتوارى ، والا كما
ينحسر فجر - اذا انحسر - عن شروق ليس في اتجاهه ما يحتجب .
فهي ترى ما وراء الظواهر كما لو لم يكن هذا وراء ، أو كما لو لم يكن
هذا وراء الا رمزاً فقط يشير الى مسافة .

وحين تقاصرت ابتدراها : أنا عما يأتيه هذا الذي ذكرت أم وهو
في بقطة مثل بقطتنا ؟ . . أجابت :

أتاه الروح على نحوين من بقطة ومنام ، فقد حدثني [بأنه مرة جاءه
وهو مغف في نمط من ديباج فيه كتاب ، فصنع به مثلاً نبأتك من
صنيعه به في بقطته ، ثم أنصرف عنه وهب من نومه وكأن ما طالعه
به كتب في قلبه كتاباً . . قال : فخرجت حتى اذا كنت في وسط من
الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا

جبريل ، فرفعت رأسي الى السماء أنظر ، فإذا هو في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول مقالته .

فوقعت أنظر اليه فما أتقدم وما أناخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها الا رأيتك كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أماي وما ارجع ورائي حتى انصرف وانصرفت راجعاً .

وقلت له حين غشي الدار : يا أبا القاسم أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك فحدثني بالذي سمعت . . فقال ورقة :
لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ،
فقولني له فليثبت . . ولم يفصل الا يسير من وقت حتى قصد ورقة
حل الكعبة ، ساعياً الى لقياء ومشافهته ، فقال :

يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره النبي خبر ما رأى
فقال : والذي نفسي بيده ، أنك لنبي هذه الامة . . ولتكذبه
ولتؤذنه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم
لأنصرن الله نصرأ يعلمه . . ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه (١) .
وورقة هذا الذي عاش في الريب وتقلب في الحيرة ، قر اليوم عيناً

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٠ - ١٥٣ .

بما خفق به فؤاده زمناً . . ومال وقلبه على شفثيه ، يطبعه قبلة تقوى
في جبهة هذا الخراب العتيد .

وشهد الناس في صراى هذه القبلة . . كيف يعيش الهيكل
العتيق (١) الى الهيكل الجديد ، وقصاراه أن يسكب روحه في جلاله
رعشة قدس تبقى .

ورقة - على ما وصفناه ، فلعلته حظ النفوذ الى الغيب وراء
أستاره - حدد هذه النبوة تمهيداً ، لكأنما كان عند نبوعها يرى
ويبصر ، ساعة هتف هتافه وكانت فبرة الحق الأعلى في نبرته « هذا
الناموس الأكبر الذي نزل الله على موسى وعيسى » . . يقول : في
طبيعة هذه النبوة خصائص كل نبوة ، فلن نمجي " علاجاً لداء شرير
من داء ، بل أتت معنى الدواء كله لتمسح معنى الداء كله : في إنسانية
الانسان ، وإنسانية المجتمع . . وما فوق هذا وهذا ، في أن يكون
لك حظ من إنسانية هي تفجر من قلب الله .

ولم ينشب ورقة أن أغمض عينيه في غبطة النعمة (٢) ، وبرد

(١) كان في الجاهلية لفضله وفضيلته يلقب بالناس راجع عمدة القاري

ج ١ ص ٦٣ .

(٢) قال ابن منده اختلف في اسلام ورقة واليه ذهب جمع من المحدثين .

الاطمئنان ، وحلاوة اليقين . . ليبقى على لسان النبوة ذكرى طيبة :
« لا تنالوا ورقة ، فانما كان له جنة او جنتان ^(١) » . . .

* * *

وتعرو النبي بشربة ، يروده في حدودها قلق من شأن نفسه ، .
فهو يتخوف وهو يقلق ، وهو يفكر ويطيل التفكير ، ويتبصر
ويطيل التبصر . . ويأجأ الى قلب خديجة يتكنفه ، وقلب خديجة
- لو تعلم - كوثر او ينبوع ، فيبثها بث الواجب الذي يأمر « والله
لقد خشيت على نفسي » .

وتعد خديجة بصرها تحديق في المجهول البعيد ، في لفقة من عمل
الفكر - ولفقة من عمل القلب ، لتقول في عزمة المطمئن وقطع الواثق
« كلا والله ، لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ،
وتكسب المعدوم وتمين على نوائب الحق » ، ولتجعل من التسلسل

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وقال هو صحيح على شرط الشيخين ،
وروى الترمذي ان خديجة سألته انه كان صدقك ولكنه مات قبل أن تظهر
فقال النبي رأيت في المنام وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار لكان عليه
لباس غير ذلك وهو غريب ، وذكر ابن اسحاق انه قال رأيت للفق وعليه ثياب
حربر لانه أول من آمن بي وصدقني قبلما ابعث . راجع في كل هذا كتاب
عمدة القاري الذي سبق التنويه به .

المنطقي لعمل الأخلاق وطبيعة الفضيلة ، سبيلها الى الالتزام بأن العدل
الآلهي لن يميل به ، الا ميل الاصطفاء ، ولن تمر به يده الا
الاختيار في دنيا الناس .

البرهنة بالأخلاق منطقياً ، تمتدعها السيدة خديجة في تاريخ الدهن
البشري ، كما لو وضعها في هذه الصيغة :

أنا إنسان حقاً ، فأذن أنا إلهي (١) حقاً . . . وما كان الله
بناقض غزله ، فمن ذا يحسب بأن المنق يتنكر ويكفر يوماً بروأله ،
وأعني من ذا يحسب بأن المنق يتنكر ويكفر يوماً بذاته . . .

وخديجة على الثقة تميل في قدر الموقف وزنته ، الى الأخذ أيضاً
بتجربة روحية خالصة وممارستها ، فتقول :

« أي ابن عم ، أستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا
جاءك ، قال نعم . . . فجاءه جبريل كما كان يصنع ، فقال النبي لخديجة
هذا جبريل أتاني . . . فما هي الا أن حسرت وألقت خمارها ، وما هي
الا أن ادخلت محمداً بينها وبين درعها ، ثم قالت هل تراه ، قال لا ، قالت :
يا ابن عم اثبت وابشر ، فوالله إنه لملك (٢) » . . .

(١) النسبة هنا لأدنى ملازمة كما لا يخفى .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ على اختلاف يسير في
الرواية والسرد .

الى أي شيء هذفت السيدة خديجة بهذا كله ؟ .. إنها تنقلنا بما
فعلت من نحو في البرهنة الى نحو ، فهذه التجربة التي اجرتها تقوم
على مفهوم روحي نير مثلما رأيت في البرهنة بالأخلاق وهي تقوم
على مفهوم عقلي نير .

فذلك التراتبي الرفيع في جو الانبياء ، لا يكون الا حيث تخاص
الروح منفصلة من كل علائقها الأرضية ومشتقاتها وتتجرد مستطيلة
تجرد صفاتها الآتية .. وإن أقل ما يحيط تلك العلائق ويحرك عملها ولو
في مقدار خفق النبضة ، يكفي ليحجب المشهد كله عن عين المشاهد .
فما احتجب جبريل وما كان له أن يحتجب ، وإنما بشرية محمد الآن
لم تعد ترى .

وجبريل في مفهومنا ، سيال روحي (١) ، أو قل بتعبير المتصوفة :
مدد الهي في مقام من المقامات ، ولكل منها إمداد ونجل .. فهو
معنى غير مفارق ، وإن تبدى في صور تنزعها النفس من حالاتها .
إنه أي جبريل ، طاقة روح في درجة استملاء هي القمة ..
ولعل في حديث « الشعبي » ما يشير الى هذا الملاحظ ، وهو « أن

(١) وقل مثل هذا في كل ملاك هو في مسرى الروح يجنح بها الى فوق ..
وقل عكسه في كل ما يجنح بمصرها الى تحت .

رسول الله نزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة . . . فقرن بنبوته
إسرافيل ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن
.. فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على
لسانه عشرين سنة : عشر آ بمكة ، وعشر آ بالمدينة ^(١) . . .

* * *

وتغمر النبي راحة نفس لا حد لها ، فيقفل عائداً الى « حراء » مقر
تأله وتساميه.. وينقطع في هذه المرة وينقطع ، ويخامر خديجة ما تخشى .
فتنطلق حيث هو المهبط الأقدس ، تحمل له الزاد والماء ، وتحمل
له ما هو أسمى من الزاد والماء .. تحمل له قلبها ذلك « الملاك الحارس » .
ويتولاها رعب حين لم تجده في الغار ، فهي تجري هنا وهناك
على غير قصد منها بين معاطف الجبل ومنعرجاته . . . وتلقى رجلاً كان
غريب الملامح عليها يجوس خلال المنحنى ، فتزهد رعباً وتزيد سعيها ،
لتعبد النبي عند حنية شاخصاً يبصره في السماء حيث النجوم السوابع ،
الممعة في الجو البعيد .

(١) راجع عمدة القاري في حديث بدء الوحي . . . على أن جبهة شراح
الحديث يذهبون الى أن النبي بقوله لقد خشيت على نفسي لم يقصد به إلا أن
يكون امتحاناً لمقدار ثقة خديجة به وابتلاء لقلبها ، وأما مقتضى ظاهر قوله
خاشاً أن يكون راوده ، وفي هذا التخريج ما فيه من قيل وقال .

فترده اليها . . بعد لأي منها ولأي منه ، فيطالها بصره ذلك
المحبب الرغيب ، وتنبسط اليه باثة في أذنه خبر الرجل الذي رمت
له سيماه وما استثبتت من معارفه ، لتعقب بمخاوفها من أن
يكون طائف غيلة .

ولكن النبي يسم ، ليفضي اليها بأنها أيضاً حظيت بملاكة . .
فهي تعقب . . ثم يفضي اليها بقول الملاك لهنية سبقت :

[بشر خديجة ببيت من قصب « اللؤلؤ المجوف »

لا صخب فيه ولا نصب (١)] . . فتوزعها هزة طرب ، وتعيد
بمحقق فرحة لا تمسك من نفسها معها .

وتأخذ النبي مثل النجاة الباغية ، وتأخذها مثل الدهشة الذاهلة . .
لتتحرك بعد حين ، يد النبي تشير الى المنبسط الفضاء .

« يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك (٢) » ، وفي
سرور الدمع ودمع السرور تجيب خاشعة :

« لله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام (٣) » . .
وتتناهى في نشوة أقداس كأنها نشوة أحلام .

(١ و ٢ و ٣) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٤ .

في مركبة الفجر

« لتكذبه ، ولتؤذنه ، ولتخرجنه ، ولتقاتلنه » ..

قالها ورقة ، وكأنه كان مع غدا الجاهلية على موعد ، يعلم خافيته وما يتحرك في عروقه من تنكر حاق ، وما يضطرم في صدره من غليان مخيف .

انبسط غدا الجاهلية أمام ناظره ، انبساط مشهد عريض ممتد ليس يحتجب منه جانب . فهو يرى عنقا ويشهد قسوة ، وفي هذا العنت وهذه القسوة يرى وحشية محدودة الانياب مشرعة الاظافر . ومحمد هذا النبي الاكرم . . يراه جاهداً في العباب من ثورة المجتمع الغاضب ، فيعروه ضيق ويتولاه حنق ، وتسدركه حماسة الانتصار ، فيميل متوتر الاعصاب كمن يهم بقبضة لا يبالي كيف وقعت وأنى وقعت ، « ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً مؤزراً يعلمه » .

ويدور ناظره دوران الدعر ليتسارع فيه على فجأة اطمئنان بادي
الغبطة ، فيبتسم كمن يبارك . . انه يرى محمداً ليس وحده ، فها هي
خديجة ، وها هو ابو طالب ، وها هو فلان وفلان في نفر غير
قليل .

فالمجتمع نار على محمد حقاً ، ولكن ها هو بهذا النفر يشور أيضاً
على نفسه ، وثورته على نفسه علامة تحوله ، ونذير بقرب انهيار ماله
من قواعد ، مشت الزلزلة المتنفضة فيها ما بين حجر وحجر ، وما بين
حبة رمل وحبة رمل .

ألا . . إني الآن أرى بداية النهاية لدعوى الجاهلية ، المتداعية
طللاً على طلل ، ورجماً دونها رجم . . ونهاية البداية لدعوى النبي ،
المتشاحنة قمماً فوق قم ، وعمداً دونها عمد .

وعاوده تحديق تنسأه به الى مثل جمود متصلب القصصات حيناً ،
والى مثل زهزهة متطلقة الأسارير حيناً . . فقد رأى في البعيد ،
مركبة الفجر تمر في الحلك الدامس ، فهو يلفها آونة وهي تغريه آونة ،
ثم استمر لها ذلك فأيقن بالشروق .

مره وطاب له ، أن يرى خديجة - وله من دمها وله من حقيقتها -
تطعم مركبه الضياء من قلبها ، وتضع يدها في اليد الموضوعة على

الزمام ، ثم تدفع ولا تألو ، دون الغاية . . غاية من كان يعمل على أن
يلجم الليل .

* * *

[يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ،
والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر] .

على موهن من الليل - ومشبوب من حياة القلب الطائف على
نشوات ، والمهدد في الوض الرخي المنسكب - جلبجل في صدر محمد
صوت السماء يهيب به الى النهوض . . فأبناء التراب ، تراباً - استمروا -
يحولون ، وزيت المشكاة التي اوقدتها يد الله في طبيعتهم أحالته تلك
الطبيعة ثقاله ، لا يكون لها - مهما اضطربت - حفظ الضوء حين لم
يبق لها في العطاء الا حفظ الدخان .

كذلك كانت تبدو هذه الطبيعة البشرية يومذاك ، وقد شققها
الزفير اللافح ، وخذد فيها الأخاديد الى مسارب عميقة ، ودارت
نواهش الجفاف خلالها تشتف ، حتى لا وشكت أن تأتي على نواة
بذرتها الألوهية في طبيعة الانسان من بيادرها .

هب محمد رسول الله على نداء النذير ، لا يبالي غضباً ولا رضا ،
ولا يأبه أأرادوه لعنف كالح ام انبسطوا اليه بلين محبر ، ثم لا يحفل

آيات منهم على حرك موجودة ام بات منهم على مناعهم ود من
زغب الأقحوان .

لقد انطلق يمضي وأمام ناظره أمر من الغيب ، وانتداب من
السماء ، « قم فأنذر » .. وهو كلما مضى أكثر فأكثر أضمن أكثر
فأكثر ، دون هوادة على ثقل الاعصار ونجوم الأفق المحيط .
في هذا النداء ، كنهف له الغيب : من يكون ، وما هو كائن له ..
وما كان ليتذكر محمد بحقيقته فيتوانى ، وما كان ليتجاهل التزامات
رسالته الكبرى فيصانع .

انه مدعو لمجاهبة مجتمع بكل ما فيه ، ومن وراء مجتمعه كل
مجتمع مركوز على غير قاعدة انسانيته .. فما هادن وما استكان ، بل
بسط في مقدسات الباطل يده ، وأعمل فيها معاول من إرادة الحق ،
 واجتماع أعصاب العزم الأقدس .

وكان تنزيل هذه الآيات مع بدء الخطوة ، لترسم له مناهج
الطريق ، وأسلوب العمل في أخذ نفسه وأخذ الناس .. وجاءت هذه
الآيات الكريمة ، متتالية تتالي البنود ومقصودة عقد المواد ، تبياناً
لالتزامات المجاهد الكادح والمناضل المزوم .

« يا أيها المدثر (١) » .. نداء لمشتعل بدثار الروح وأثواب التأمل - في عزلة استعلاء ، وتوحد تقديس ، ورودان ارتشاف - حين فاض إناؤه ليعطي ، ..

« ثم فأنذر » .. إهابة به الى العطاء في شكل الازالة والتهديم ، والعطاء في السلب كالعطاء في الايجاب ، كلاهما يكمل على الآخر مرة ويجمع له معناه ، واعني كلاهما طريق الى قلب صنوه .

والانذار كلمة لونها لون الوعيد ، وهو إنما يتمدد فيما أنت مستهدف من حواضن الشر ، ومثابات الفساد ، ومكامن الخطر .

وجاءت الالهابة بكلمة الاسر « قم » ، لافادة أن واجب المصلح ليس التنوير فقط ، بل جمع العزم كله في جهاز العمل كله .. فشأنه أبداً شأن الحارس الساهر ، هو متفتح العزم تفتح العين لا يُغضض منها كما لا يُخفض فيه .

و « قم » هذه من بعد ، تعني : كن حركة متهيئة ، وعزيمة جميمة ، ونهضة مشتعلة ليس من شأنها الا أن تقدم .

(١) المفسرون على أن المدثر هنا المتلعب في الفراش ، وذهبوا هذا المذهب اعتماداً منهم على ماورد في حديث بدء الوحي من انه نادى الى اهله فقال دنروني مرة ومرة زملونني .

« وربك فكبر (١) » . . نقلة الى شكل المطاء في الایجاب ،
فأنت اذ تهدم ، ينبغي أن تبني في مصاحبة لا تنقطع او تتوقف ولا
تتوانى او تتأخر . فالحياة إنما تدور حركتها بالموت لأنها به تنشى ،
وما إخال الموت في يد الحياة الا كالمحاة في أيدينا حين نخط ،
ليست هي وسيلة لنقف بل هي وسيلة للمستمر ، وليست هي عنوان
إزالة بل هي عنوان احسان .

والقرآن بجملة موجزة ، أبلغ ما يكون الایجاز ، جمع للمصلح
الحق كل غاية سعيه .

فأرب رضى الخير وموئل الجمال وينبوع الحق ومفيض القيمة ،
فكل شئ " اذن دونه ، وهو إنما به يتقيم .

وتأتى القرآن بصيغة القصر ، تأسيساً لهذا كله ، في الفكر والقلب
وما فوق الفكر وما دون القلب . . والمصلح بهذه الثقة وبحكم هذه
الغاية ، يعرف كيف ينشى " دون حساب ، ويبدع دون مثال أي
ابداعاً عبقرياً ، او بمثال مطلق هو الرب جل شأنه ، الذي تتكسر
- حين تخلو من معناه - القيم ، وتنزف دماؤها ، وتبرى من روحها .

(١) التكبير في الآية . بمعنى التعظيم والتفضيل ، لا بمعنى مرادف التهليل كما
توهم المفسرون جرباً مع المتبادر الشائع .

وأنت بهذا الاعتقاد أي الله أكبر ، قوة لاتدحر . . ثم كل ثابت تراه ، محس به في يديك يتخلل .

والمصلح الأكل حين يندفع اندفاعه ، بهذه الثقة في كل كبرياءها ، غاسلاً أثواب حقيقته لتأتي إشراق الطهر كله ، لا تقوم دونه عقبة ، وإنما تتداعى كالكتيب المهيل بين يديه العقبات .

« وثيابك فطهر (١) » . . اسبك نفسك بما انطوى فيها من نزعات وانتظمته من ميول ، سبيكة الشعاع . . واسكبها سكب قلب الكواكب ، شآبيب ضوه ومنايع نور ، . .

« والرجز فأهجر (٢) » . . نافياً من جو نفسك كل نزوة ، وای درن بحر في آفاقها صر السكف ، وبتهادى على وجه سمائها تهادي السفعة في مقلة الشمس .

(١) ما نزع اليه المفسرون من ان المعنى هو تقصير الثياب وحكات العرب يومذاك يطولونها خيلاء او تنظيفها ، بهيد كل البعد عن روح القرآنت . . وانما المعنى بالثياب فيها نري ، النفس او الحقيقة . . والعرب كانوا يقولون لله اثواب فلان يريدون نفسه ووقع بهذا المعنى عند ابلي الاخيلية راجع أساس البلاغة للزمخشري . . ووقع عند عنتره في قوله :

وشككت بالرمح الاحم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم واستسهل به المبرد في الكامل لهذا المعنى فراجعه .

(٢) المفسرون أوأهكترم يذهبون في الرجز الى انه الوثن ، اما نحن فنميل الى انه هنا يعني مطلق الدنس والدرن من أي نوع ولون وجاءت بهذا المعنى اللغة .

ومصلح يصنع نفسه هذا الصنع ، ويشفق أعصابه من تلك الثقة ،
لحري بأن لا تقطع المخاوف « منته » ، وطاقة نفسه على الاحتمال ،
وقدرة عزيمته على المضاء والأمان ..

« ولا تمنن تستكثر (١) » .. ثم لحري به ، أن لا يستعظم
المصائب والخطوب ، بل هو كلما عظمت استقلها في عينيه .. فلوجه
فكرته بجهد ، وفي ذات الله يعمل ، فشأنه دوماً « ولربك فاصبر » .

* * *

بهذه الآيات التي رسمت له منهج العمل الكبير - الكبير في آلامه ،
في تجلده ، في جلاده - أخذه الغيب أول ما أخذه .. فوطن النفس
في لذة على المكروه ، وباشره مباشرة الرغيب اليه .

وخديجة هذا الملاك الحارس ، حشدت له وحشدت .. حشدت
له في التضحية راحتها ومالهسا ، وما فوق الراحة والمال حشدت له

(١) المفسرون جميعاً على أن تمنن في الآية من المنة بكسر الميم بمعنى اليد
والعطية وهو لا يتفق أبداً مع تسلسل النظم القرآني ، وعندنا أنها من المنة
بضم الميم بمعنى الصاب والقوة والعرب يقولون من عليه يمن تفضل ويقولون منه
بمنه اضمه وقطع صلبه ، والمعنى القرآني على هذا لا تمنن نفسك أي لا تضعفها
بما سوف يمترضك من المخاوف .. ومنه قول القائل :

سكان لم يفن يوماً في رخاء إذا ما المرء منته المنوت
وعلى هذا ترى كيف يتسق النظم القرآني وينسجم معناه انسجاماً بدعاً في
علاقة طبيعية .

الحياة حين بذلتها بذل السخاء ، ونزلت عنها نزول السباح .

فقر النبي عيناً ، ولا بدع ، فقد تفقد فيها جناحيه ، فكانتها له

- كما يريد - منشوري القوادم موفوي الخوافي .

وبات محمد كما بات النسر المساور على نشز ، وأمنن مشتدآ في رحلة الى

الافق البعيد . لا يبالي أمر به اعصار ، ام استدارت به عاصفة .

لقد انصبت في جناحي محمد قوة معجزة كما لا تعرف ، او كما لا

يعرف الخيال منها ، قوة كانت قلب امرأة اخلصت . . وقلب امرأة

حين تخلص ، كون كبير .

وتأمل طويلاً ما استوى التأمل لك ، وأمنن النظرة ما انصلت

عندك ، ثم أعط أذنك لرواية ابن اسحق ، تشهد حقاً أية امرأة

هناك كانت تظلل النبوة ، وليس كما يعطف الورق حسبه الظل يلقيه ،

بل كما تقي الأضالع . . أقل ما تهب ، أنها تستقبل الجراح ، وتنجف

بشفاه القلب دمة الاسى ورشحات الجهد :

[خفف الله بخديجة عن نبيه ، لا يسمع شيئاً يكرهه ، من رد

عليه و تكذيب له فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه بها . . اذا رجع

اليها ، تثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس (١)] . . .

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٣ .

حبس ضيق

(بشر خديجة ببيت من قصب) . . ذلك هو وسام
الاستحقاق الذي نالته من تقدير السماء ، وسخت به يد الله عطاء
كريماً ، حين وقفت الى جنب النبوة المسكافة في كل مواقعها الأولى
المرهقة . . لكأنما كانت تستعذب الألم كيفما استدار ، متممراً أو
مستأسداً .

انها تقبل عليه مختارة ، وترشفه في نهم ورغبة نفس . . وما
أدرانا ان لا يكون عذاباً حقاً في حسها ، وما ادرانا ان لا تكون
- وهي تستقبله - في فرط من لذة لا تبلغ اليها أحلامنا في الآلام .
ففي حسها استحوذ وجدان مثالي أسمى ، فهي به تطعم طعم
الأشياء ، وهي به تتذوق ما يعرض لها ، أو ما قد يعترضها من
شؤون : عامل الشجأ أكبر العوامل فيها ، ومستحلب المرارة هو اغزر
ما تفيض به من عصارة .

وفي أعصابها مشى ذلك الترائي الأقدس ، ومن أمره انه
لا يستغني ويبهت مع الآلام ، بل يزيد حدة تألقه ، ويزيد فرط
سطوع كالوركب في جناحي توهج .

نعم . . انها بوجه من نعرف من شهداء العقائد - ان لم نقل
بأسمى سمة وبأسخى بشراً - كانت تستقبل آلام الكفاح الذي خاضه
قرينها النبي وخاضته معه ، عاملة ماضية وصابرة محتسبة ، لا ينبض
عندها عرق بلين أو نخوف . . بل هي تقطع قناطر الدموع ،
والخطوب المتفولة ، في بسعة كبرياء لم يعهد منها الا بعض نفر من
صانعي التاريخ .

بصدرها الرحب ، كانت تستقبل العاصفة وشفاياها المشتعلة ، لا
ليكون لها في حسها ذلك الرجع المدمر ، أو ذلك الوقع الصاعق . .
وانما ليحيى ايضاً مادة ناهضة تدفع بها وتدفع ، وتمد لها في أخذ
الطريق غلاباً ، شأنه اللذة بالفكر .

لقد بان في هذه الحقبة ، التي قدمتها بطلاً ضحياً من أبطال
الرسالة ، يوم لم يكن لهذه الرسالة من ابطال ، الا محمد بكر السماء في
أرض الجاهلية ، والافتي هو بكر الايمان الحق فيما وعت الدنيا . .
من ورائه والده الشيخ يباركه ، وبارك قافلة الغرباء التي كأنها أمت

على منابك الغمام من بعيد :

[قال ابو طالب لفتاه علي : يا بني ما هذا الذي أنت عليه ..
فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسوله . فأطرق ملياً ليقول :
الزمه يا بني ، أما إنه لم يدعك الا الى الخير (١)] .

لقد بان في هذه الحقة - وأنت خديجة خلاها بطل بناء ،
لا تمنخه الجراح مهما استفحلت ، ولا تبيض جناحه مهما دومت -
سر قدرها ، ذاك الماضي المثل بالارزاء ، الذي ما كان ينقطع بلون
الا ليتداركها بلون ، وهو اذا سكنت عنها فالى هدنة قصيرة .

نعم لقد انكشف ان القدر ، انتدب من نفسه صريباً لخديجة ،
وتعهدا تعهد الاعداد .. فهو لا يفتأ يبنها بنائه ، ويصقل أعصابها
ذلك الصقل ، ويأخذها بتجاربه شيئاً بعد شيء ومنزلة فنزلة .. ليعود
فيعمق مراسي احتمالها ، ويفجر منابع ذاتها تفجير الثقة وكبرياءها ،
تفجير البطولة وتهاويلها .

أترى ؟ .. وهذا ما احسب - أن القدر في كل ايامها ، انما كان
يصنعها ليومه ، لهذا اليوم ، الذي شاء الحق فاصلاً في معركة الباطل .

* * *

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٧ .

(بشر خديجة ببیت من قصب) .. والقصب كما عرفنا ، مجوفات
الآليء (١) .

وما أروع صورة في الخيال وهــو يرسمه ، بيد انه ليس ابدأ
بأروع من تضحياتها ، التي انما صاغ الخلد هذا البيت منها ، وجاء به
تباورات من منسكب اياديها .. فيه من طهرها ذلك الشعاع ، وفيه
من نقائها رفة جبين الملائك وهالة وجه النساك .

لبئت في هذه الحقة التي توجت جبين حياتها ، وأناملها - كيفما
تحركت - ترش حبات ضياء لتجبي متناثرات عقود ، يلم منها أطواقاً
الخالدون ومن في طريقهم ، وتستحم بوجهها أرواح مقرورة تطلب
الدف المنعش ...

(١) الحديث أخرجه البخاري بسنده الى عائشة وغيره كثيرون .. والقصب
عند الجوهري هو أنابيب من جوهر ، ونقل النووي عن بعضهم انه ذهب
منظوم بالجواهر ، وقيل اللؤلؤ المجوف كالتقصر المنيف .. وعن أبي هريرة قال
قلت يا رسول الله وما بيت من قصب قال بيت من لؤلؤة مجوفة رواه السمرقندي ،
وفي صحيح مسلم بيت من لؤلؤة مجوفة قال الخطابي مجوبة قطع داخلها فافرغ ..
وروي أبو القاسم ابن مطير باسناده الى فاطمة سيدة نساء العالمين ، انها قالت
لأبيها : أين امي ؟ قال في بيت من قصب لا لغو فيه ولا نصب بين مريم وآسية
امرأة فرعون ، قالت أمن هذا القصب هو قال لا انه المنظوم بالدر واللؤلؤ
والياقوت .. والسهبلي في الروض الانف ذهب الى ان الحديث اختصها بالنص
والأكيد على بيت ، لأنها كانت صاحبة بيت الاسلام وهو تخريج مستحسن .

وثشتد قریش شدتها ، وتركب سنام عنفوانها الهادر بالبقي ،
وخديجة في عين الله تُرى ، تأخذ طريقها الى الحطيم ، حيث البيت
العتيق وحيث قریش الفائرة .

تأخذ طريقها غير حافلة ، في ظل من تطل من عينيهِ الشمس ،
وأزاءها فتى قالت الشمس إن انعكاسها في عينيهِ اللتين تركت فيهما
أعمق اسرارها .

نعم تأخذ الطريق ثابتة القدم غير واجفة ولا مترددة ، الى هناك
تقيم صلاتها على اللجة من صخب المجتمع الحافق :
(كان الناس يرون رجلاً يصلي ، ووراءه امرأة و غلام ،
وحشد يسخر) . . .

وتكثف صحابة محمد (ويدخل الناس في الاسلام أرسالاً
أرسالاً من الرجال والنساء) ، وتباغ قریش في شدتها شدة ، وفي
عنفوانها عنفوان ، فتأخذه وتأخذهم اخذ الطيش ، وتستقبله
وتستقبلهم استقبال العنت ، وتتحرك به وبهم تحرك الحقد . . فباطل
قریش لم يعد يطيق لغة العقل :

(وقالوا : لن نؤمن لك ، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . .
او ان تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها

تفجيراً . . . او تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفاً . . . او تأتي بالله
والملائكة قبيلاً . . . او يكون لك بيت من زخرف . . . او ترقى في
السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . . . قل :
سبحان ربي ! . . . هل كنت الا بشراً رسولاً .)

فهذه الآية ليس ابلغ منها في تصوير عناد قريش ومنطقها
المحموم ، وما قد اخذت به محمداً وصحبه من تعصب يركب حماقة
وينطاق بقسوة ، واذا قريش هنا وهناك (يتذاكرون بينهم على من
في الأحياء من أصحاب رسول الله الذين اسلموا معه ، فوثب كل حي
على من فيه من المسلمين ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم (١)) .
واذا بأبي جهل هائج يعقد خيوط خطة فدائية ويحكم امرها
(فمحمداً قد ابى الا ما ترون من عيب ديننا وتسفيه احلامنا ، واني
اما هذ العزى واللات : لاجلسن له غداً بحجر ما اطيق حمله ، فاذا سجد
في صلاته فضخت به راسه ، فأسلموني عند ذلك او امنعوني . .
وليصنع بي بنو عبد مناف ما بدا لهم . . فيردون بصوت واحد :
امض لما تريد ، ما نملك أبداً) .

ويطلم محمد في بعض الطريق يوماً ، فيثبون اليه وثبة الصخر

(١) راجع سيرة بن هشام ج ١ ص ١٦٥ - ٢٢٠ .

الجميع ، ويحيطون به احاطة الحوار بالمعصم يصر خون في وجهه (انت
الذي تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ..
فيقول رسول الله : نعم انا الذي اقوله .. فيأخذ بعضهم بمجمع رداءه
يخنقه ، ويهلع قلب ابي بكر فينهض دونه وقد قطعه البكاء :
اتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله .. فيجذبونه بلمعيته جذباً
شديداً الوطأة) .

ويرجع الرسول الى منزله عاقد النظرة على رثاء ، ومجتمع القصص
على شفقة مكتوبة - وحاشا محمداً - فما عقد نظراته يوماً على رأس ،
وما اجتمعت قساماته على اكفرار من ضاق ذرعاً .
فتمستقبله خديجة بدسمتها التي ما حالت عن بشر كان يتزايدها في
الملامح ، وتأخذه بنظرها المتفائلة وما انزلت الا عن امل ، وتفتح
قلبه على الثقة بالفسد وأنه لن يشرع بابه الا لابنائها ، ابناؤه دعوته
الجديدة .

وانه لذلك منها . ويحس بهدبر عميق كأنما يقع الى اذنيه من
مكان بعيد ، ويتضح وضوحه ، ويتداركه شبه انصراف شارد باتت
تعرف سره عنده . . فتقبل عليه بفؤاد خاشع الفتة ، وبطرف مفعم
الحفظ بالوجد وما هو الى الوجد من حنين اقدس .

وما هو حتى يقبل النبي ويقبل ، كما لو انه توارى في غير مكانه ،
ويهب مشتدأ الى اردبته يجمعها عليه ، فقد جاءه الوحي (فاصدع
بما تؤمر) ، وجاءه الوحي (ولا تك في ضيق مما يمكرون) .

فيبالغ النبي في الدعوة الى الله ، صادعاً بأمره ، ناهضاً بأعباء
التزامه وإن فادحاً (انا انزلنا عليك قولاً ثقيلاً) ، وناشطاً الى
الغاية يعبد بمنكبيه الطريق ، ويدفع بصدوره الصغور المعترضة ، بين
يدي قافلته التي ينبغي لها ان تسير :

ان ضمير الحياة يناديها ، يناديها وحدها لتصنع مجتمع الاحياء
من جديد ، وتقود مركبة التاريخ .

وقريش لا ترعوي ، فهي تشتد اشتدادها في المكروه وتبالغ به ،
وتثقل وطأتها . . فيهاجر نفر تسخو نفوسهم بالاغتراب والتشرد ،
وتسخو بما لهذا وهذا من مخاطر أقلها البؤس ، ضناً بالعقيدة المثلثي
التي حررتهم .

وتنشط خديجة المقدسة ، تعين العائلين منهم وتزود المموزين
بينهم ، وتنفق عن جود لم تعد تحس به جوداً بل واجباً ، تنفق دون
حساب .

انها باتت تشعر بأمومة العقيدة شعورها بأمومة من كانت له في
السمح والدم .

وزوجها النبي ، ان يكن اعطى في الابوة البذار ، فان من حقها
ان تعطي في الامومة اللبان .

* * *

وكان في مهاجرة هذا النفر الكبير ، ما ضاعف صلف قريش ،
وحرك عتوها في القسوة اكثر فأكثر .

فها هي تبتكر في العقوبة الأم ما عرف تاريخها ، تبتكر العقوبة
بالمقاطعة الاجتماعية على كل الوانها من اقتصادية وحيوية . . ومثل
هذه المقاطعة في ذلك المجتمع ، لأشد من الموت صبراً .

انها تعني الابداء بوحشية ، تعني ادارة رحي ضخمة ، بين حجر
منها وحجر ، ما تعرف وما لا تعرف من جوع وصراة ظمأ وحدة
آلام :

(فاجتمعوا واثمروا ان يكتبوا كتاباً ، يتعاقدون فيه على بني
هاشم وبني المطلب : على ان لا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، الى
بنود كثيرة ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على
انفسهم) .

وكان ابو طالب يومذاك ، قلعة محمد التي يعتصمها ، فتعصمه . .
وعلى ان خطسة قریش الجديدة مفزعة تدور بلسان الرعب ، لم تزد
ابا طالب الا رغبة في الذود عنه ، وحرارة في الرمي عن قوسه . .
وينحاز الهاشميون والمطلبون اليه ، ويقم ويقيمون على الجهد المرمض
(ثلاث سنين) ، وتحبس خديجة داخل الحصار المضروب ثروتها تخفف
من ثأبته ولا تبالي أن تنضب ، وتنبت ميسرة الأسباب لكسر هذا
الحصار ما أمكن اولشل أثره ما أمكن ، وتؤاب - ولا تفتأ - ذويها
لامداد المحاصرين سرأ .

وتفعل فوق ما في طوق البشري ان يفعل ، ويهون عندها ، على
ان لا تندحر دعوة بعلمها العظيم .
وتنجح حركة التأليب أي نجاح ، ويستفيق في بعض الناس
ضائرهم ، وتمشي فيها مثل فوّهة « بركان » يكاد يثور ، ويكاد
يتأجج .

وكان في بعض الدرب انسان يتأطر تأطر الاستخفاء ، من ورائه
فتى يحمل شيئاً تأخذه العين ولكنه يتعرف في المنعرجات كمن يشد
عليه استارها .

وكانت عين ابي جهل هناك تدور ، كمين افئوان تقري

الدروب ، فهب يشتد اشتداد السهم المنطلق ويتواقع تواقع القـدر
المهابط ، وفي مقتلتيه لفته نسر جائع .. فيذهل الرجل ، ويسبخ الفتى
في نفسه الذهاب ، وتقطع الصمت الواجم أو الكالح ، نبرة تتوعد .
وكان الرجل حكيم بن حزام بن خويلد ، وكان الفتى غلامه . .
[يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة حيث هي في الشعب مع الرسول ،
فتعلق به وقال :

أتذهب بالطعام الى بني هاشم ، والله لا تبرح انت وطعامك حتى
افضحك بكمة .. جاءه ابو البختري ابن هشام ، فقال : مالك وله ؟ ..
فقال : يحمل الطعام الى بني هاشم . فرد ابو البختري :

طعام كان لعمته عنده بعثت اليه به ، افتمنعه ان يأتيها بطعامها ،
خل سبيل الرجل . . فأبى ابو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ،
فأخذ ابو البختري لحي بعير فضربه به فشجه ووطئه وطأاً شديداً ،
وحمزة بن عبدالمطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون ان يبلغ ذلك
الرسول وأصحابه .

وسمى سرّاً بعض الى بعض بنقض الصحيفة حتى كانت زمرة ،
فقال زهير ابن ابي امية : انا ابدؤكم فأكون أول من يتكلم . . فلما
أصبحوا غدوا الى انديتهم ، فطاف زهير بالبيت ثم أقبل على الناس ، فقال :

يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكي
لا يباعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة
القاطعة الظالمة .

فهب ابو جهل يقول : كذبت والله لا تشق . . فخبه زمعة بن
الأسود : انت والله اكذب ، ما رضينا كتابها حين كتبت . . قال
ابو البخثري : صدق زمعة لانرضى ما كتب فيها ولا فقر به . . وقال
المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها
ومما كتب فيها . . وقال هشام بن عمر نحواً من ذلك . فقال ابو جهل
وهو يصرف بأسنانه :

هذا أمر قضي بليل . . وابو طالب جالس في ناحية المسجد ،
فهب المطعم الى الصحيفة يشقها عنده ، وكانت قد أكلتها
الأرضة (١) [.

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ - ٢٢٧ . . نستطيع ان نقطع
بان أروع كفاح وابلقه شأناً في تاريخ العقائد الدينية كانت أم أوغيرها كان الكفاح
الاسلامي في هذه الحقبة ، ومن الانتم في جنب تاريخنا الاسلامي ان لا تعطى
الجهود اللازمة وان تهمل هذا الأعمال الذريع على ما في طياتها من طاقات تحيي
وتنشئ . . ولعل من أنفع ما يعبر عن مرحلة هذه الآلام السكبيرة شعر أبي
طالب الذي كان يزلزل مجتمع قريش يومذاك زلزاله الأشد ، ومن الخير أن =

وبانت خديجة هائلة . . لقد كسرت طوق قريش ، وأذاب قلبها
 قلب الحديد ، وبسطت لمحمد الطريق مرة أخرى الى مجتمع أحسن
 بالهزيمة . . يوم شلت مقاومته الاجاعية لأول مرة ، وبذرت في
 تربته بذور المحاسبة الضميرية ، أي بذور تزلزله وتداعيه لأنها بذور
 الثورة على النفس .

لقد كان نقض الصحيفة في نظري بمثابة نقض ذلك المجتمع العتيق
 كله ، وكان معركة الظفر المعنوية به التي جاءت الأولى والأخيرة - على
 الحقيقة - وما بقي ففوة استمرار وحرمة تطهير .
 وها . . خديجة المقدسة تغمض جفניה فاعمة المقلة (١) ، فقد

== نضع هنا مثلاً معبراً عن ذلك الألم الحي :

ولما رأيت القوم لا ود عندهم	وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	وقد طأوعوا أمر العدو المزابل
وقد حالفوا قوما علينا أظنة	يمضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمرام صمجة	وأبيض غضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي واخوتي	وأمسكت من أنوابه بالوصلات
قياماً معاً مستقبلين رناجه	لدي حيث يقضي حلفه كل ناقل
أعوذ برب الناس من كل طاعن	علينا بسوء أو ملح يباطل

(١) لحقت السيدة خديجة بالرفيق الأعلى قبل الهجرة بخمس سنين أو بربع
 أو بثلاث وهو الأصح بعد أبي طالب بثلاثة أيام في شهر رمضان ، ولها من
 العمر أربع وستون وستة أشهر ودفنت في الحجون .

رأت ظفر محمد حقاً ، رآته في اشلاء ذلك الطوق العاني الصريع ، وفي
أمزاق صحيفة أكلاتها أرضة ، كأنما سكبت من لعابها على باطل الناس
ما سكبت منه على باطل الحرف .

لقد أكملت خديجة رسالتها في عين محمد ، ليكمل رسالته في عين
الله .

وكان أن ارتسما في وعي الدهر ، ارتسام سحابة على تربة ، بينهما
الخصب الممرع .

فائدة العبد

حتى الايمان . . . ليطيب ، لينسكب انساب الملاب
بالعبق والفوح ، هو في حاجة الى تخمير ، الى تعتيق .

واعل ذلك ، هو ما خالط الفسك الذين اعتزلوا الحياة وما الى
الحياة من أباطيل الزخرف وزخرف الأباطيل ، وأخذ بهوى أفئدتهم
أخذاً في الذروات حيث المغاور والكهوف ، مغمضة الأعين نصف
إغماض ، لتتلقف إنساناً شاء له القدر أن يسكب فيه مره ، وان
ليجمل منه قلباً انسانياً أتقى .

فهو يحتويه ، ليصنعه صنع الجواهر السكرية ، بالصقل والتصفية
والتهذيب .

إنهم يندفعون اندفاعهم تحت حس عفوي خالص ، قد يكون ،
ولكنه في الباعث الأبعد والأعمق مشدود الى هذا القصد .

أنظن في غرض القدر - وما أستبعد - ان هذه المحاولات لهم ،

ليست الا الزقاق والدنان ، كمثلها للراح التي نصنعها صنع النشوة ..
ولكن هذه عبقرية الرؤى ، سامية الأحلام .

ما أدرانا ان يكون ذلك من تعليل القدر لهم واسلوب عمله فيهم ،
ثم ما أدرانا ان لا يكون قلب البشري ، هذا القلب نفسه ، وهو في
شكل واحدة القوارير ، أنه قارورة حقاً لمتحلب الايمان .. وهو
يعمل فيه تعليل الراح بالتعتيق ، ويعالج معالجة العصير بالتقطير
والتخمير .

حتى اذا فض ختامه ، انفض عن كوتر ، عن ذات الانسان
المبدعة ، انفض عن مثل معنى الخلد .. (انا اعطيناك الكوثر) .
وخديجة المقدسة ، كان لها ذلك الايمان المعتقد حقاً ، أي كان
لها ذلك الكوثر الروحي الذي تدفق به حقيقتها ، كنبوع تمد ولا
تتقطع ، تفيض ولا تفيض .

فأعطت للإسلام عطاء كريماً .. فقد غدت نبياً ، وتعمدت
وصياً (١) .. وحاشا أن أقول صنعت ، فأنا في همى ما ليس بدشري ،

(١) روى علي عن النبي انه قال : خير نساءها مريم وخير نساءها خديجة ..
يعني في دنيا الاولى وفي دنيا الثانية . راجع عمدة القارئ شرح صحيح
البخاري ج ١٦ في فضائل خديجة .

وإن كان لغيرها الطبيب لو في غير هذا الحمى ، أن يصنع وأن يمشي .
لقد تعهدت علياً أيضاً ، أي تعهدت للدعوة قطبها الآخر ، يوم
ضمه النبي اليه ومد عليه ظل جناحه .

فتركت فيه حظاً كما تركت في النبي حظاً ، كأنها تذكاريين
خالدين ، ما بقي للإنسانية عرق تمشي فيه نبضة حس رفيع .
وجاءت مع النبوة ، لتقول : إنه معناها في عبارة اللحم والدم ،
في عبارتها الأرضية التي تجوهر فيها التراب .

ولتقول أيضاً : إنها المرأة التي تعطي ، وهي التي تبذل .. اذا
استعلت استعلاء حقيقتهما وما انحدرت انحدار أنايتها ، المتلطفة
تلطف الشهوة ، والمعربرة عربدة السكر ، والمسعورة سمار الداء .
والمرأة - هذه الأعصاب الجميلة - قلما تستعلي ، ولكنها اذا
استعلت تجي شديداً عظيماً ، تجي مفترق تاريخ أي قاعدة تاريخ
جديد ، ومصنع ابداع ، وينبوع حقائق كبرى .

وخديجة المقدسة ، كانت لنا في الاسلام ، ذلك كله .
كانت لنا امرأة ، على عضديها ، كأنما أقامت دعامتي قوس النصر ،
ليظل وجهها من بينهما أبداً بلا لآئمه ...

* * *

والنبي على ما صر به من صروف كانت قاسية ، إن في الترحة أوفي
الفرحة ، كان لا يزاله وجهها الذي كأنما يستلهمه رجاء ، حين يستنزل
الرجاء ، واطمئناناً حين ينشد الاطمئنان .

إنه لا يفتأ يذكرها على اية حال من أحواله كلها ، ولا يفتأ يصله
خاطر بها يندفع بخاطر . . . حتى لأورث ضيقاً وأثار غير . . . وها هي
عائشة تحدثنا حديث مشاعرها التي أحفظت حيناً ، وتوقرت حيناً ،
ثم لم تطق بينهما إلا ان تلج محنقة الى محراب ذكره القدسي :
(استأذنت هالة بنت خويلد اخت خديجة على رسول الله ،
فعرف استئذان خديجة في استئذانها ، فارتاح لذلك فرط ارتياح وقال :
اللهم هالة .

قالت فغرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء
الشدقين هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها .
فغضب غضباً حمياً ما عهدته ، حتى لقلت والذي بعثك بالحق لا
اذكرها بعد هذا الا بخير) . . . وفي رواية [كان النبي يكثر ذكرها ،
فربما قلت له : كأنما لم يكن في الدنيا امرأة الا خديجة ، فيقول :
كلا والله ، ما أبدلني الله خيراً منها . . . انها كانت وكانت ، آمنت
اذ كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بما لها اذ

حرمني الناس ، ورزقي منها الله الولد دون غيرها من النساء (١)] .
والنبي في غير الذكرى ، كان يجعل لها حظاً أي حظ من عمله
ومن حياته ، فهو - كما روت عائشة - ما كان يبذل ويطعم إلا جعل
خيار بذله وطعامه في خلائل خديجة وصديقاتها بما يسمعن .
وحين كانت أمالي الأبوة أو اية العواطف الأخرى ، لا تفعل فيه
إلا فعلاً يسيراً ، كان إما أثر من آثار خديجة يدور به كطوفان . .
فقد روي :

[لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعد بدر - وكان أبو العاص
وهو ابن هالة أخت خديجة بينهم - بعثت زوجها زينب بنت محمد إلى
أيها :

إنه أبو العاص ، ان قرب فابن عم ، وان بعد فأبو ولد ، واني قد
أجرتة . . وبعثت إليه كذلك بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على
أبي العاص .

فلما رأى رسول الله القلادة ، رق رقة شديدة وذكر خديجة فلم

(١) راجع تفصيل الخبر في رواياته عند البخاري في صحيحه ج ١٦ ص
٢٧٧ - ٢٨٢ بشرح المعيني ، وعند أحمد في المسند وعند الطبراني من رواية
ابن أبي نجيح .

يستمسك وقال للمسلمين :

إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوه عليها فافعلوا] .

* * *

وامتد بالنبي عمر طويل وظلت على لسانه عبارة الوفاء المثالي

المورق :

[إني لأحب حبیبها] .

والنبي بذلك ، كأنما قطر تقطيراً عصارة الأقداس الإسلامية

كلها وجعل منها قارورة معبدة ، لتظل ذكرها بالعبر ، تملأ الجو
هناك ، وتحمل أرواح المتبتلين على أجنحة من فوح ، ورفيف من
طيوب .

الفهرس

٣	هذه السلسلة
٩	مقدمة
١٦	في مدينة الأوثان
٣١	على شفاء الزهر
٥٤	امرأة تخمر الطيب
٧٩	يوم لاقت الملاك
٨٨	في مركبة الفجر
٩٧	حبات ضوء
١١١	قارورة المعبد

محمد بن الشهر

سلسلة كتب شهرية

تقدم في مطلع كل شهر كتاباً في موضوع خاص



الكتاب الثاني

يقدم فيه : -

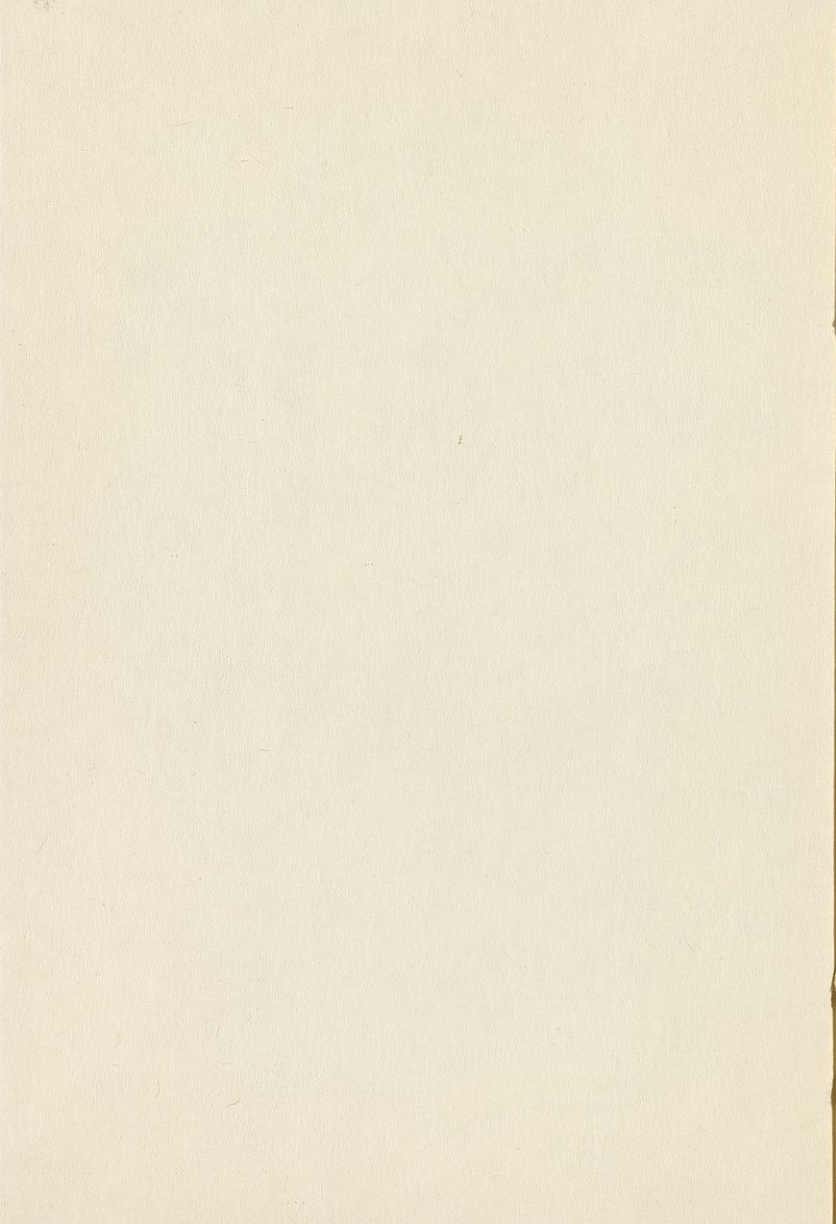
الدكتور

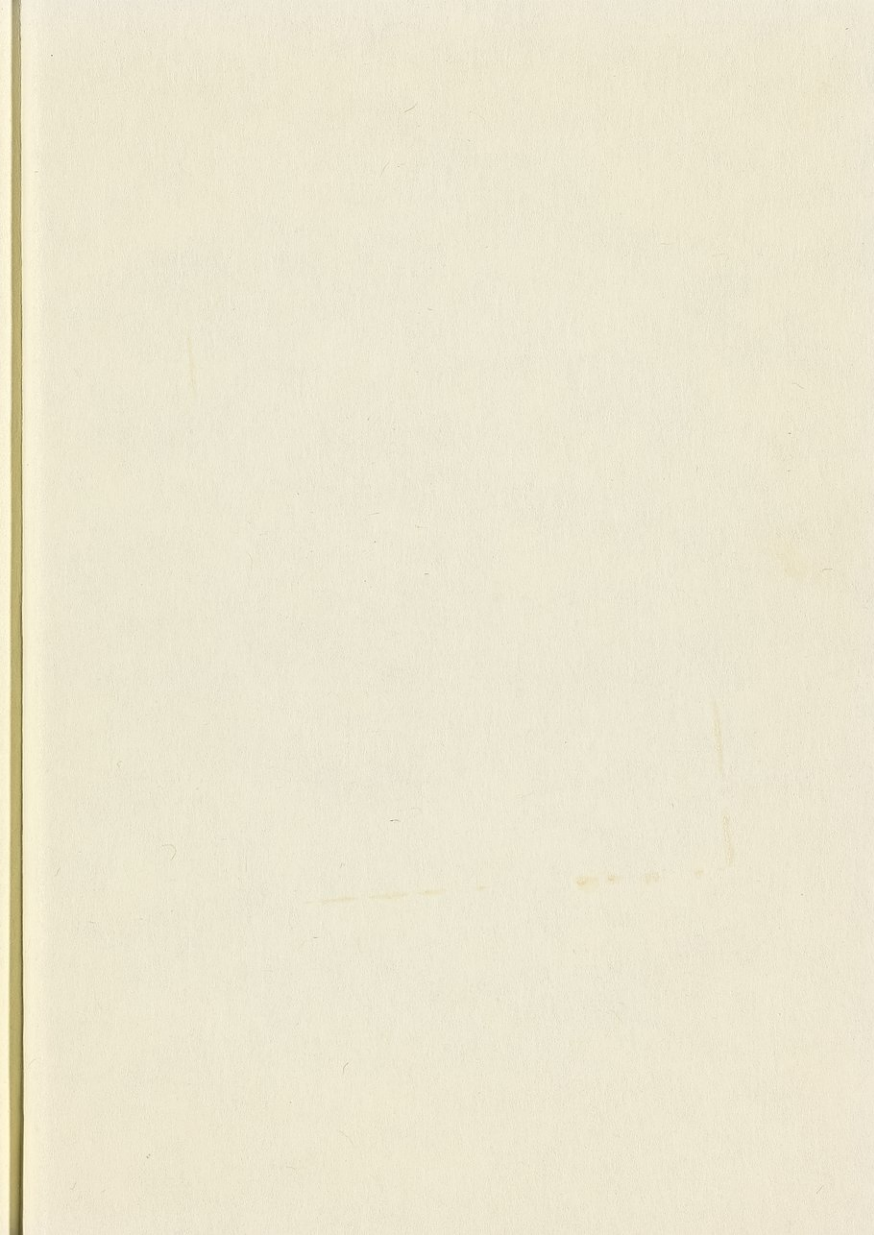
محمد بن الشهر

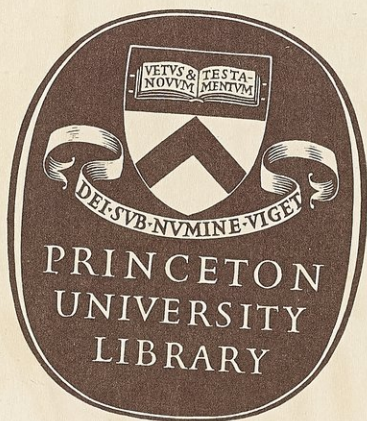
أبو حفص النقيب

من أعلام الفكر في القرن السادس الهجري

8684









32101 055409799

حزبين الشهير

سلسلة تربط بين الماضي والحاضر وتمزج بين القديم والحديث .
 » شهيرة تعالج شتى المواضيع بأقلام حرة تمثل الأدب الحي
 الرفيع والرأي المجرد الحر .

بمصدرها

عبد الامير السبيتي

بإشراف

جماعة من أهم رموز الفكر

التمن : ٦٠ فلساً في العراق

٨٠ » أو ما يعادلها في الخارج

جميع المراجعات مع

عبد الأمير السبيتي - السكاكبية